التوقيعات التدريبية

الاستاذ ناجي معروف
عميد كلية الآداب

الفصل الاول

التوقيعات في الحضارة العربية

١ ـ تمهيـــد :

يظهر للباحث بعـد دراسة الوثائق والنصـوص الواردة فى المظـان المختلفة ، ان الحضارة العربية قـد تعددت ألوانها • واختلفت أغراضها ، واتسعت مطاليبها • وتغلغلت في كل البلاد ، التي تم فتحها على أيدي العرب ، في آسية ، وافريقية ، وأوربـة فى القرون الوسـطى . وشـملت مختلف نواحي الحياة • وأبدعت نظماً ، وعلوماً افاد منها العالم • وابتكرت فنوناً جميلة ، وآداباً رفيعة هذبت الذوق الانساني ، وصقلته . وجـاءت بقوانين وتشريعات كرّمت الانسان • ورفعت من قدره • وبوأته المنزلة التي تليق به • وأنقذته من ضلال العبودية ، والرق • وأخرجته من الظلمات الى نور الحيـــاة الحرة الـكريمة . وكان الدين الاسلامى من أقوى العوامل التى أمدت هـذه الحضـارة بهذا التراث الخـالد ، الذى لا يزال موضع تقدير العالم ، واعجـاب العلماء .

ولمـا كانت الحيـاة العربية قد انتظمت ، واستقرت على أسس ثابتة ، فقد أصبح لشؤونها المختلفة قواعد ثابتة أيضاً • فالتدريس كانت له انظمته وتقاليده • والنقابات كانت لها أسسها ومبادؤها • وغدا لتقليد الوزارة ، ونيابتهـــا عُرْف معين . وصـار لتعيين القضـاة ، وقضـاة القضـاة ، والمحتسبين ، « توقيعات » ورسوم تـدل كلهـا على مبلغ عمـق الحضـارة العربية ، واستقرار الحياة الاسـلامية يومئذ .

وقـد بلغ التنظيم في الحيـاة درجة كبيرة بحيث أصبح لـكل شأن

من شؤونهـا صيغة « توقيع » أو « تقليد » خاصة ترد فى المظـان المختلفة ، مقرونة ـ في الغالب ـ باسم الكاتب الذي انشأها • ويكون عادة من كبار الكتاب البلغاء أو من كتّاب دواوين الانشاء • كما تكون مقرونة باسم الكاتب الذي رسم خطها • ومعلّمة بعلامة السلطان القائم يومئذ •

وقد بـدأت « التوقيعات » أو « التقاليد » ، و « العهود » في زمن مبكر من الحياة العربية • فقد كتب الرسول (ص) والخلفاء عهودهم لولاتهم وقادتهم الذين كانوا يولونهم على الولايات التابعة لهم ، كعهد الخليفة عمر بن الخطاب لابى موسى الاشعرى عامله على الكوفة . وقـد شرح لـه فيه قواعد القضاء . وكعهد الامام علي بن ابي طالب لعامله مالك بن الاشـتر عندمـا ولاه مصر . وعهود الخلفاء لولاة عهدهم الذين يخلفونهم في الخـلافة ، كعهد الرشيد لابنائه ، وعهود الخلفاء للسلاطين بالسلطنة . وعندما يحمل هؤلاء الى الخلفاء المـال الذى ينسب الى البيعة[1] .

وقـد يكون التقليد موجزاً[2] . وقـد يـكون عظيماً[3] جداً يبسط فيـه القول ، والمبالغة في تفخيـم الشـخص المعين ، المفوض بالتدريس أو الاعادة ، أو القضاء ، أو نيابة الوزارة ، أو النقابة ، أو ما الى ذلك .

٢ ـ مفهوم التوقيعات :

ولقد رأيت قبـل ان أبدأ بحث « التوقيعات التدريسية » ان أذكر أن في هـذا البحث مصطلحـات كثيرة ، لها دلالتها ، ومعانيها التى اختلفت باختلاف العصور ، والاقطار . وقـد عُنيت فى هـذا البحث ، بشـرح مفهوم التوقيعات ليقف القارىء على معناهـا قبل قراءة النصوص والوثائق الحضـارية . وليسهل عليه فهم الغرض من ذكرهـا لانهـا صـفة لـكل

---

(١) ابن الجوزي ٩ : ٨٠ .

(٢) جاء في أدب الـكتاب للصولي ص ١٣٤ ان جعفر البرمكي قال لـكتابه : « ان استطعتم ان تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا » .

(٣) اليونيني ج ١ ص ٣٥٦ .

الوثائق التي وردت فيه . اما المصطلحات الاخرى الكثيرة التي ذكرت في النصوص فسأعْنَى بشرحها أنّا وردت فى هذا البحث .

فالتوقيع : اصطلاح يطلق على نسخة أمر ، أو تشريف[1] خليفتي ، أو ملكى ، أو اميرى يرسم بتعيين موظف ، أو ترتيب مستخدم في احدى الوظائف الهامة كترتيب مدرس ، أو تعيين نقيب ، أو محتسب ، أو قاض[2] ، أو قاضي قضاة ، أو تعيين شخص[3] على اقطاع . وقد يسمى التوقيع « فرماناً »[4] . ويقرأ بحضور الاعيان فى الجوامع أو المدارس . ويتلى من فوق المنابر كما سنذكر ذلك .

و « التوقيع » كالتقليد تحدد فيه الامور التى يفوض بها صاحب التقليد كافة ، من ادارة الاوقاف ، والبيمارستانات ، والتدريس في المدارس ، أو استتابة الموظفين في الوظائف التي تحت ادارته .

و « التوقيع العظيم » هو كتاب السلطان ويكون بمثابة بيان للناس يصدره الملوك ، أو الامراء ، أو الحكام أو السلاطين لرعاياهم يفرضون عليهم فيها ضرائب معينة . أو يسقطون عنهم ضرائب ورسوماً معينة[5] ... أو ما الى ذلك .

ويكون « التوقيع » احياناً كالسند أو « الفرمان » يدون فيه ما في أيدي الناس من ولايات ، ووظائف ، أو من املاك ، وعقار[6] .

ولعل أساس « التوقيع » وأصله ، ما كان يكتبه الخليفة ، أو الملك ، أو الامير ، أوالسلطان ، أو الوزير تعليقاً على كتاب ، أو رقعة ، أو ملتمس بتوقيعه بجملة ، أو عدة جمل قصيرة هى جواب الكتاب ، أو الرقعة

---

(١) السلوك ١٦٧ و٨٠٨ .
(٢) السلوك ٥٤٢ .
(٣) صبح الاعشى ١٣ : ١٤٤ .
(٤) اليونيني ج ١ ص ٣٦٠ .
(٥) اليونيني ج ١ ص ٣٧٢ والسلوك ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ .
(٦) اليونيني ج ١ ص ٤٥٤ .

يذيلونهـا باسمهم على صـورة توقيع ، أى « امضاء » .

وقـد يكون الجواب أو « التوقيع » اما على ظهـر الرّقاع ، أو في حاشية الـكتاب . وقد يكون في هذه الحالة شعراً أو نثراً مسجوعاً[1] أو مثلاً سائراً أو حكمة بليغة أو آية كريمة أو حدياً شريفاً .

وكان الخلفاء الاولون يكتبون أمثال هذه « التوقيعات » بأنفسهم . ومن أمثلة ذلك ان الرشيد لما نكب يحيى بن خـالد البرمكي كتب لـه يحيى : « ان كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصّاً فلا تَعُمّ بالعقوبة فان لي سـلامة البرىء ، ومودة الوَلىّ » . فوقع الرشيد في حاشية كتابه : « قضي الامر الذي فيـه تستفتيان »[2] . وذكر الجهشياري ان المأمون وقّع للفضل بن سهل بخط يده[3] ... الخ .

وظلت التوقيعات تجري على هـذا المنوال حتى أيام الرشيد ، حيث كثرت « التوقيعات » فأصبحت تناط بوجه عـام بالكُتّاب . قال الجهشيارى :

« ولـم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في التوقيعات على ان يوقّع الرئيس فى القصة بما يجب فيهـا ، ويذكر المعاني التى يأمر بهـا ، ولـم يكن للـكتّاب في ذلك الامر شيء أكثر من ان يكتبوا تلك الجملة من التوقيع ، الفاظاً تشرحها ، ويقُرب من العامة فهمها ، ولا تخرجها عن معنى قصد الرئيس الى أيام الرشيد فان المتظلمين كثروا على باب جعفر . وتأخر جلوسه اياماً ثم جلس ، وكانت القصص قـد كثرت ..... فوقـع على ظهرهـا : « يعمل في ذلك بما يعمل في مثله على سَنَن الحق وقصده ، وجهة الانصاف وسبيله ان شـاء الله » فورد على الـكتّاب من ذلك ما لـم يردْ مثلُه . وامتثلوه . ثم صـار ذلك رسماً للرؤساء »[4] .

---

(١) الجهشياري ص ٢٠٥ .
(٢) الجهشياري ص ٢٥٣ .
(٣) الجهشياري ص ٣٠٦ .
(٤) الوزراء والـكتاب ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

ومرت « التوقيعات » بمرحلة أخرى حيث صار « التوقيع » يطلق على الكتاب كله ، أو على المرسوم كله ، أو على الامر الادارى كله . وذلك من باب اطلاق الجزء ، وارادة الكل . وأصبحت كلمة « التوقيعات » ترادف لفظة « السجلات » ، التى تحتوى على الكتب ، أو الاوامر ، أو المراسيم أو الدعوة كالتوقيعات الفاطمية التى حفلت بمعلومات مهمة عن نظام الدعوة الفاطمية ، وعن العقيدة الفاطمية ، والتعابير الدينية التى كانوا يستعملونها ، كالنجوى وهى الضريبة التى كان يدفعها المستجيبون لمذهبهم ، و « الفطرة » التي تدفع يوم عيد الفطر[1] ... الخ .

« وكان سبيل ما يثبت فى الدواوين ان يثبت فى صحف فكان خالد [بن برمك] أول من جعله في دفاتر » في العراق كما يذكر الجهشياري[2] . وفي مصر كانت التواقيع والمراسيم السلطانية تثبت في « ديوان النظر » وهو ارفع دواوين المال كما يذكر المقريزى[3] .

٣ ـ تحرير التوقيعات في ديوان الانشاء :

ولاشك فى ان « التوقيعات » بشكلها الثانى أصبحت فناً وصنعة تكتب في دواوين الانشاء ، التى كانت فى الدول الاسلامية . فقد كان يكتبها كتّاب معروفون في الغالب ، اختص كل منهم بفن من فنون الانشاء . وحذق ضرباً من ضروبه ، بل لقد كان ثمة كتّاب يوقعون أمثال هذه التوقيعات بختم الخليفة نفسه[4] . ويظهر أن الخاتم كان يسلَّم للكاتب ، يختم به الرسائل عن صاحب الخاتم[5] . وأصبح يراد بالتوقيع يومئذ : التأشير على الكتب ، وابداء الرأى فيما تضمنته ، وتعيين الطريقة التى تحرر بمقتضاها الردود .

ويبدو لنا أن الخلفاء الذين كانوا يكتبون بعض العبارات ، أو الجمل

---

(١) السجلات المستنصرية ص ٢ و٢٣ .
(٢) الوزراء والكتاب : ٨٩ .
(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٢٤ .
(٤) السجلات المستنصرية ص ١٤ راجع ابن الصيرفي « قانون ديوان الرسائل » .
(٥) الجهشياري ص ١٠١ .

في الكتب والرسائل ، والتوقيعات . انما كانوا يفعلون ذلك لاضفاء شيء من القدسية والبركة على تلك التوقيعات .

وكان التوقيع في هذه الحالة يحرر بأمر الخليفة ويعرض عليه ، فيشرّفه بالتتويج والامضاء[1] . وأحياناً يكتب بعضه بخطه . فقد ذكر ابن الجوزى ان الخليفة القائم بأمر الله قال عندما ولى حفيده « عدة الدين » ولاية العهد : « اشهدوا ما تضمنته هذه الرقعة التي كتبت فيها سطرين بخطي ... »[2] .

ويلاحظ ان التوقيعات الفاطمية التى كانت تصدر عن الخلفاء الفاطميين كان يذكر فيها العبارات الآتية : « بخط اليد النبوية » أو « بخط اليد الشريفة النبوية صلعم » أو « بخط اليد الشريفة صلعم » مكتوبة بالحبر الاحمر وربما دل ذلك على ان هذه الجمل كان يكتبها الخلفاء الفاطميون انفسهم ولذلك اختلف مدادها عن مداد « التواقيع » . اما التى لا يبدأونها بمثل هذه العبارات فيظهر ان الكتّاب هم الذين كانوا يكتبونها[3] . ومن المحتمل ان الخليفة ان لم يكن يكتب « التوقيع » كله أو بعضه بنفسه ، فانه كان يملي بعضه بنفسه على الكتاب .

ومما يدل بوضوح على ان الخلفاء ، والسلاطين كانوا لا يكتبون أكثر التوقيعات بانفسهم ، ورود عدد كبير من اسماء الكتّاب ، الذين دونوا هذه التوقيعات فى مؤلفات المؤرخين . وسوف نشير فى هذا البحث الى بعض كتّاب « التواقيع » الذين وردت أسماؤهم في الوثائق والنصوص التي سنوردها . ولا يفوتنا في الوقت نفسه ان نذكر ان هناك عددا ضخما من الكتّاب حفلت بهم دواوين الانشاء فى البلاد الاسلامية بأسرها[4] .

---

(١) الجامع المختصر لابن الساعي ٩ : ١٩٩ والمنتظم ج ٩ ص ٨٠ .
(٢) المنتظم ٨ : ٢٩٠ .
(٣) السجلات المستنصرية ص : ١٥٢ و١٦١ و٢٠٨ .
(٤) راجع السيوطي : حسن المحاضرة ٢ : ١٣١ طبعة القاهرة ١٩٠٣ ـ ٤ . ومعجم الادباء لياقوت الحموي طبعة فريد رفاعي ٤ : ٥ ـ ١٢ و٩ : ١٥٣ و١٧ : ٢١٢ .

وكانت دواوين الانشاء هذه من أهم الدواوين فى البلاد الاسلامية . يتولى الاشراف عليها ، كما يقول القلقشندي[1] : « اعلام البيان ، وأفذاذ الكتاب » . وكان « كتاب السر يشرفون على كتاب الدواوين » ويلي « كتاب السر » ، « كتاب الدست » الذين كانوا يجلسون عند « الدست » وهو مرتبة جلوس السلطان للكتابة بين يديه[2] . وكانوا يعرفون بـ « الموقعين » ، لانهم كانوا يوقعون على بعض الرقاع ، كما يقول القلقشندى[3] .

ومن أشهر كتاب التوقيعات الذين وردت اسماؤهم فى بحثنا هذا ...

١ ـ مجد الدين محمد بن جميل كاتب المخزن ببغداد .

٢ ـ كمال الدين احمد بن العطار ابى الفتح بن محمود الحموى بدمشق .

٣ ـ القاضي شرف الدين بن فضل الله العمري .

٤ ـ صلاح الدين الصفدى المؤرخ الشهير .

وسنذكر موجز تراجمهم في الفصل الثالث عند البحث في التوقيعات التدريسية التى انشأوها ببغداد أو الشام . على أننا ندون هنا اسماء بعض كتاب التوقيعات بوجه عام ممن زخرت بأخبارهم كتب الادب ، والتاريخ ، ليقف القارىء على قيمة التوقيعات التى دوّنوها ، في مختلف شؤون الحضارة العربية ببغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، ان كانوا في دواوين الانشاء التي في هذه البلاد أو لم يكونوا فيها . فمنهم الكتاب الذين ترجمنا لهم فى كتابنا « وثائق ونصوص من الحضارة العربية » المعدللطبع باعتبارهم من كتاب الوثائق الحضارية الواردة فيه واليك اشهرهم :ـ

١ ـ بهاء الدين بن الفخر عيسى الاربلى المنشىء ببغداد .

٢ ـ ابو الحسن محمد القُمى كاتب ديوان الانشاء ببغداد فى خلافة الناصر .

---

(١) ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) القلقشندي ١ : ١٣٧ .

(٣) صبح الاعشى ١ : ١٣٨ .

٣ ـ القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي البيساني كاتب صلاح الدين الايوبى .

٤ ـ العماد الكاتب .

٥ ـ الصاحب علاء الدين الجويني .

٦ ـ محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر بمصر .

٧ ـ تاج الدين أحمد بن الاثير .

٨ ـ شهاب الدين محمود العمرى كاتب الدرج .

٩ ـ فخر القضاة نصر الله بن بصاقة .

١٠ ـ الملك الناصر داود .

١١ ـ الصاحب فخر الدين ابراهيم بن لقمان الاسعردى رئيس الكتاب .

١٢ ـ محمد بن محمد الحسينى بمصر .

ومن كتاب التواقيع المشهورين ايضاً : آل العمرى وهم :

١ ـ القاضي محيي الدين بن فضل الله العمري .

٢ ـ القاضى شرف الدين بن الشهاب محمود العمرى .

٣ ـ القاضى علاء الدين بن فضل الله العمرى .

ومنهم :

١ ـ شمس الدين ابراهيم القيسرانى .

٢ ـ شهاب الدين محمود الحلبى .

٣ ـ القاضى علاء الدين بن عبدالظاهر .

٤ ـ أبو سعد بن المُوصَلايا .

٥ ـ الصدر جمال الدين حسين بن الموصلى ... الخ .

٤ ـ « العلامة » في التوقيعات :

وكانت الكتب ، والاوامر الخليفتية ، والسلطانية لا تخرج من « الدار العزيزة » ببغداد ، أو القصور السلطانية ، بالممالك الاسلامية الاخرى كمصر ، والشام الا بعد أن تمهر بـ « العلامة » . وهى : اشارة

وأعلى اعلاء كلمته ، كلمة الحق وشانه . فشرّفه بالتتويج ، والامضاء . وأوضح فيه من المراشد ، كل محجة بيضاء . والله تعالى يعضد آراء سيدنا ، ومولانا ، أمير المؤمنين بمواد التوفيق ، والتأييد . ويوزع الامة شكر ما مدّ عليهم من ظل امامته ، المؤيد بمنّه ، وطَوْله . الحمد لله وحده ، وصلواته على خير خلقه محمد النبي وآلـه ، وسلامُه ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل . رب اختم بخير » .

وقـد تولى كتابة « العلامة » بعض الوزراء . وكان يعهد بكتابتهـا أحياناً الى أحد كبار الـكتاب نيابة عن الوزير . ولمـا تولت الملـكة عصمة الدين أم خليل المعروفة بـ « شجر الدر » جارية الخليفة المستعصم . الحكم في مصر سنة ٦٤٨ هـ اتفق ارباب الدولة ، ان تكون العلامات السلطانية على « التواقيع » تبرز من قبلها[١] . ويقال لهـا : « العلائم »[٢] .

وفي أواخر الدولة العباسية كان من وظائف « الدوادار » ان يقـدم الى السلطان كل أمر « تؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير ، والتواقيع ، والـكتب » كما يقول المقريزى[٣] : فيكتب السلطان بخطه على كل ما يأمر به . ويضع « العـلامة » على المنشورات الخـاصة بالامراء ، وأصحـاب الاقطاعات .

وكان استعمال هذه « العلامة » يعهد احياناً الى احد « الدوادارية » فيكون عمله هو هـذه « العـلامة » فقط أي توقيع السلطان[٤] . على ان « الدوادار » كان لا يصـدر مرسـوماً الا بعـد عرضـه على السلطـان ومشاورته ، ومعاودة أمره الشريف ، ومراجعته[٥] .

وتتكون « العـلامة » من عبارات ، وجمل مختلفة نذكر منهـا :ـ

---

(١) السلوك : ٣٦٢ .
(٢) السلوك : ٤٧٠ وابن شاهين ص ١٠١ .
(٣) الخطط ج ٢ ص ٢١١ .
(٤) السلوك : ٦٨١ .
(٥) شهاب الدين العمري ص ١٥٠ .

تكسب هذه الاوامر ، صفة رسمية . وذلك ان الخليفة ، أو السلطان ، أو الوزير كان يكتبها بخطه ، بشكل خاص .

وقد كان لكل خليفة ، أو سلطان « علامة » و « توقيع » . قال المقريزى : قد جرت العادة ان السلطان يكتب خطه ، على كل مايأمر به . فأما مناشير الامراء ، والجند ، وكل من له اقطاع ، فانه يكتب عليه « علامته »[1] .

وذكر ابن شاهين أن ناظر الجيش فى مصر ، كان « يقرأ ما يتعلق بالاقطاعات على المسامع الشريفة ، فيمضي السلطان من ذلك ما يشاء . ثم يدخل كاتب السر ، ويقدم « العلامة » فيعلّم السلطان ما امضاه . وكذلك المناشير ، والمراسيم ، والمربعات[2] ، والتواقيع الشريفة »[3] .

وذكر المقريزى[4] : ان السلطان كان يكتب اسمه ، واسم ابيه ، ان كان ابوه ملكاً في تقاليد النواب ، وتواقيع ارباب المناصب من القضاة ، والوزراء ، والكتّاب ، وبقية الوظائف ، وتواقيع ارباب الرواتب ، والاطلاقات[5] . وان لم يكن ابوه ممن تسلطن فيكتب اسمه فقط .

ويذكر شهاب الدين العمرى[6] : ان كافل المملكة الاسلامية بالحضرة وهو نائب السلطة بمصر ، كان يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان . ويُعلّم في التقاليد ، والتواقيع ، والمناشير . كما كان كل نائب يُعلّم على ما يتعلق بخاصة نيابته .

وذكر المقريزى ايضاً : ان الذى يُعلّم عليه السلطان : اما اقطاع ، فالرسم فيه أن يقال : « خرج الامر الشريف » . واما وظائف ورواتب ،

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢١١ و٢٢٢ .

(٢) المربعات : واحدها مربعة وهي ورقة مربعة الشكل يكتب فيها اسم الشخص الذي اقطع قطعة من الارض . وترسل المربعة الى ديوان الانشاء ليكتب بها توقيع .

(٣) زبدة كشف الممالك ص ٨٧ .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢١١ .

(٥) الاطلاقات : مفردها اطلاق . قطعة أرض تمنح وتعفى من الضرائب بكل أنواعها . وقد تكون ابتداء أو زيادة في احسان على ما كان مقررا .

(٦) المصطلح الشريف ص ٦٥ .

واطلاقات فالرسم فى ذلك ان يقال : « رسم بالامر الشريف »[1] .

وكان أعلى ما يُعَلَّم عليه ما افتتح بخطبة أولها : « الحمد لله » ثم ما افتتح بخطبة اولها : « اما بعد حمد الله » ، حتى يأتى على : « خرج الامر في المناشير » أو « رسم بالامر فى التواقيع » . ثم بعد هذا أنزل الرتب ، وهو أن يفتتح فى المناشير : « خرج الامر » وفي التواقيع : « رسم بالامر » .

وتمتاز المناشير المفتتح فيها بـ « الحمد لله » في أول الخطبة ان تُطَغَّر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان ، والقابه[2] .

ويظهر ان « العلامة » كانت تستعمل ببغداد ، ومنها انتشرت الى سائر الدول الاسلامية باعتبار ان بغداد كانت يومئذ مركز الاشعاع الحضارى ، الذى تقتبس منه سائر البلاد العربية والاسلامية . فقد اقتبس الفاطميون « العلامة » كما اقتبسها المماليك بمصر في جملة ما اقتبسوه من بغداد ، كانظمة الدواوين ، والمدارس ، والتواقيع وسائر النظم الاخرى .

ويصف لنا ابن الساعي[3] : صورة « العلامة » في أحد التوقيعات النقابية ، عند تولية فخر الدين الكوفى نقابة الطالبيين ببغداد سنة ٦٠٣هـ حيث ذكر صورتها ، على الوجه الآتى :

« صورة العلامة الشريفة »

« تحت البسملة « الناصر لدين الله » .

صورة خط الوزير نصير الدين ابى الحسن ناصر بن مهدى العلوى بين سطوره :

« عرض هذا العهد بمقار العز المقدس ، وشريف العرض ، ومخايم الطاعة على أهل الارض حضرة سيدنا ، ومولانا الامام المفترض الطاعة ، على سائر الانام ، الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ظاهر الله سلطانه .

---

(١) الخطط ٢ : ٢١١ .
(٢) الخطط ج ٢ ص ٢١١ .
(٣) الجامع المختصر ٩ ص ١٩٩ .

« الحمد لله شكراً بنعمته »[1] و « الحمد لله ولى كل نعمة »[2] .

وهى علامة أم المستعلى الفاطمى وابنة الخليفة الظاهر الفاطمى[3] و « الحمد لله على نعمه » وهى علامة أم المستنصر الخليفة الفاطمى . وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاوون : « الله أملي » .

وكان بعض الملوك يجعل « العلامة » الحرف الاول من اسمه . ومنهم من كان يستعملها فيما يعرض عليه من أمور ، ولا يستعملها فى التقاليد ، والتواقيع . بل يكتب اسمه ، واسم ابيه[4] .

وقد تكلم ابن شاهين عن « القلم » أى الخط الذى كانت تكتب به « العلامة » . وأورد بعض التفصيلات عن « علامة » الرسائل الاخوانية وغيرها[5] .

اما الورق الذى كانت تكتب به العهود ، والتواقيع ، والمناشير فيذكر شهاب الدين العمرى[6] انه كان يختلف من حيث الحجم ، حيث عُيِّن حجم معلوم لكل نوع من أنواع التواقيع ، والمراسيم ، والمناشير ، كما عُيِّن لكل نوع منها قلم خاص تكتب به .

وهكذا أصبحت كتابة « التواقيع » فناً يحتذى ، حيث وضعت لها القواعد ، وعينت لها الاقلام ، وانواع خاصة من الورق . واختلفت « التواقيع » باختلاف الدواوين ، والمصادر التى تصدر عنها ، والاغراض التى تهدف اليها ، والاسباب التى دُونت من أجلها ، والكتّاب الذين دونوها . والموقعين الذين وقعوها .

وصار للمناشير الكبار « طغراء » بالالقاب السلطانية تكون فوق

---

(١) ابن منجب الصيرفي ص ٣٥ و٣٧ .
(٢) السجلات المستنصرية ص ١٦١ ، ١٧١ .
(٣) السجلات المستنصرية سجل ٣٥ و٥٢ .
(٤) خطط المقريزي ٢ : ٢١٢ .
(٥) زبدة كشف الممالك ص ١٠٢ .
(٦) التعريف بالمصطلح الشريف ص ٨٩ .

وصل بياض فوق البسملة . كما صار لهذه « الطغراء » رجل مفرد لعملها ، وتحصيلها بالديوان . فاذا كتب الكاتب منشوراً ، اخذ من تلك الطغراوات والصق فيما كتب به كما جاء في التعريف بالمصطلح الشريف[1] .

٥ ـ المصطلحات والتعابير الفنية في التوقيعات :

ذكر شهاب الدين العمرى[2] ان التقاليد كانت تستفتح بحمد الله ، ويؤكد وجوب العمل بها ، وتختم بعبارة « الخط الشريف اعلاه » .

وجاء فيه ايضاً : ان الكتّاب تفننوا فى أساليب هذه التقاليد . فقالوا في : عنوان التقاليد : « تقليد شريف » . وفي التفاويض لا يقال : « يقلد » بل يقال : « وبعد » . وتكون التفاويض اوجز من التقاليد . ويقال في تعريفها : « تفويض شريف » . وفى التواقيع يقال : « أن يفوض » أو « أن يرتب » أو « ان يقرر » . وعنوانها : « توقيع شريف .. لفلان بكذا »[3] .

وقد تستفتح التواقيع بحمد الله ، أو بأما بعد حمد الله ، أو « بأما بعد ، أو بـ « أن أولى ما كان كذا » أو بـ « من حسنت طرايقه وحمدت خلايقه » . أو بـ « رسم بالامر الشريف بالالقاب السلطانية الكاملة والحمد لله » أكبرها . أو « رسم بالامر الشريف » اصغرها ، وما بينهما على الترتيب . ومن استُصْغِر من المولَّيْن لا يدعى له في آخر توقيعه . ولا يقال في آخر التواقيع على اختلافها : « وسبيل كل واقف عليه » ، بل يقال : « فليعتمد ما رسم به فيه بعد الخط الشريف أعلاه »[4] .

وأما المراسيم ، فيكون فى أقلها : « رسم بالامر الشريف زاده الله شرفاً » . وأما المناشير ، فكانت تكتب للامراء ، والجند ، بما يجرى في ارزاقهم من ديوان الاقطاع . وهو ديوان الجيوش بصورة مختصرة .

---

(١) شهاب الدين العمري ص : ٨٩ .
(٢) المصطلح الشريف ص ٨٧ .
(٣) شهاب الدين العمري ص ٨٧ .
(٤) المصطلح الشريف ص ٨٨ .

ولا يقال فيها : « رسم بالامر الشريف » بل يقال : « خرج الامر الشريف » ويقال فيها : « أن يجري في اقطاعه »[1] .

وقد أورد القاضى شهاب الدين العمرى[2] تفصيلات عمن تكتب لهم التواقيع ، والعهود ، والتقاليد ، والتفاويض ، والمراسيم ، والمناشير فذكر أن :

١ ـ « العهود » : ولا تكون الا للخلفاء عن الخلفاء وللملوك . ومن قام من الخلفاء بغير عهد فانما يكتب له « مبايعة » . ومن قام من الملوك بغير عهد من خليفة ، ولا من ملك متقدم ، فلم تجر العادة بكتابة « مبايعة » له .

٢ ـ « التقاليد » ولا تكون الا لكفلاء الملك ، كأكابر النواب والوزراء ، ومن كان في معناهما . وقد تكون لاكابر قضاة القضاة . فأما عامة القضاة فالواجب أن لا يسمى ما يكتب لهم الا تفاويض » .

٣ ـ « التواقيع » وهى لعامة ارباب الوظائف ، جليلها ، وحقيرها ، وكبيرها ، وصغيرها ، حتى النواب اللاحقين بشأو الكبار فَمَنْ دونهم . غير أنه يقول : والذى أرى ان يكون لمن لحق بشأو الكبار منهم « تفاويض » ، وللصغار « مراسيم » ، ولادنى الطبقات منهم « تواقيع » لميزة السيوف على الاقلام . وكذلك تجرى نسبة « التواقيع » على ما يكتب في المسامحات ، والاطلاقات . وهو يرى أيضاً أن ما يكتب لعامة القضاة ينبغى ان يسمى : « تفاويض » وأما جمهور من عانى الكتابة فى زمانه ، وما قاربه فيرى ان يكتب لهم « تفاويض » ايضاً ، وليس « توقيعات » .

٤ ـ « المراسيم » وهى ما يكتب فى صغائر الامور التى لا تتعلق بولاية . ومن « المراسيم » ما يستفتح ببسملة وهو للأهم . وما لا يستفتح بها وهو لما هو ادنى ، كأوراق الجواز في الطرق . ويكتب عن النواب مثل هذا في الاطلاقات ، من الخزانة العالية ، والاهداء ، والاصطبلات ، وخزائن السلاح .

---

(١) المصطلح الشريف ص ٨٨ .
(٢) المصطلح الشريف ص ٨٤ ـ ٨٥ .

٦ ـ اختصاصات الكتاب في ديوان الانشاء :

وكان الكتاب فى ديوان الأنشاء يتوزعون الاعمال بينهم على أساس الاختصاص[١] . ويلاحظ ان دواوين الانشاء بمصر فى عصر المماليك قد تعطينا صورة لدواوين الانشاء في الدول الاسلامية المعاصرة فقد كان فيها من الكتاب :ـ

١ ـ كاتب يُعنى بتحرير البيعات ، والعقود • وكان يشترط فيه ان يكون بليغاً فصيحاً .

٢ ـ كاتب يُعنى بتحرير الكتب ، التى ترسل الى الملوك . وكان يختار من بين فحول الشعراء • كما كان يشترط فيه أيضا ان يكون بليغاً جيد الخط •

٣ ـ كاتب يتولى كتابة المراسيم . ويشترط فيه ان يكون عارفاً بالقاب الملوك والامراء ، والاساليب المستعملة فى مخاطبتهم .

٤ ـ كاتب يتولى رسم التوقيعات ، والاوامر بخطه الحسن .

٥ ـ كاتب خاص يتولى كتابة الرسائل الى ملوك الفرنج . ويشترط فيه ان يكون ملماً باللغات الاجنبية .

٦ ـ كاتب يتولى تعريب الرسائل الاجنبية .

ويذكر ابن شاهين[٢] أن ديوان الانشاء بمصر كان فيه عدة موقعين وهم قسمان : « موقعو الدَّست » وهم أجلُّهم ، ولهم مراتب شيء أعلى من شيء . و « موقعو الدَّرْج » الذين يتولون كتابة رسائلهم على « دروج » وهى : الورق المستطيل الذى يتكون من عدة قطع متلاصقة بعضها تبلغ العشرين[٣] .

---

(١) صبح الاعشى ١ : ١٣٨ .
(٢) زبدة كشف الممالك ص ١٠٠ .
(٣) القلقشندي ج ١ ص ١٣٨ .

وكان كتّاب الدّرْج كما يقول ابن شاهين[1] : « لا يبطلون من الكتابة ، ولا يضجرون منها لكثرة متخصصهم ، وهى على أنواع متعددة منها : العهود للخلفاء ، والسلاطين على المنهج الواضح ، والاسلوب المبين ، والتقاليد لقضاة أهل الحل ، والعقد بما يليق بكل منهم ، من براعة المطلع ، والختام ، الدالّيْن على عظم القصد . ولكفّال الممالك الشريفة ، ذوي الرتب العوالي ، والمناصب المنيفة . وللصاحب الوزير الذى وظيفته : قوام الملك فى التصرف ، والتدبير . وللسادة المباشرين أركان الدولة الشريفة ، أولي الاقلام الموضحة ، والايدى العفيفة . ومناشير الاقطاعات للامراء ، والاجناد الموبّدين لنصرة الدين ، وحماية البلاد ، والتفاوض لمن يعتمد عليهم مما يطول وصف ذكرهم . والتواقيع لارباب المناصب ، والوظائف المنصفين كل مظلوم ، والرادعين كل حائف . والتواقيع الشريفة ، الموصّلة كل ذى حق حقه ، وقاطعة من كل ظالم سببه . والمراسلات ، والمكاتبات المشتملة على طلب الحوائج ، وذكر الاشواق والمعاتبات ، والمربّعات بالارزاق . والامثلة المبلّغة كل راج سؤاله ، وأمله » .

ويظهر أن صاحب ديوان الانشاء فى أوائل عهد المماليك بمصر كان يلقب بـ « صاحب الدست الشريف » وأحياناً بـ « كاتب الدّرْج »[2] أو « كاتب الدست » أو « كاتب السر » أو « كاتم السر » أو « صاحب ديوان الانشاء » أو « ناظر الانشاء الشريف » أو « ناظر دواوين الانشاء الشريف »[3] .

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١٠٠ .

(٢) جمعها دروج . وهي كما ذكر القلقشندي ج ١ ص ١٣٨ الورق المستطيل المركب من عدة اوصال تبلغ عشرين وصلا متلاصقة .

(٣) المقريزي ٢ : ٢٢٥ وزبدة كشف الممالك : ٩٨ ويظهر ان كلمة شريفة كانت توصف بها المرافق المختلفة . فهم يقولون : الاصطبلات الشريفة . والدولة الشريفة . واسمطة الخاص الشريف . والآدر الشريفة . والمهمات الشريفة . والابواب الشريفة . المصدر نفسه ص ٩٧ و٩٨ و١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٣٧ .

وقد ذكر المقريزى فى كتابه السلوك[1] سبعة من كتاب الدرج منهم : الصاحب فخر الدين لقمان ، والصدر بدر الدين حسن الموصلى .

وجاء فى صبح الاعشى[2] : انه يجوز ان يطلق على كتّاب الدَّرْج ، كتّاب الانشاء لانهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها . ولا يجوز ان يطلق عليهم لقب « الموقعين » لأن المراد من التواقيع : الكتابة على جوانب القصص ونحوها .

وجاء فيه أيضاً[2] : ان كتّاب « الدَّسْت » صاروا فيما بعد هم المتصدرين لكتابة المهم من كتابة « الدَّرْج » كمتعلقات البريد ، المختصة بالسلطان : من المكاتبات ، والتقاليد ، وكبار التواقيع ، والمراسيم ، والمناشير .

ويذكر القلقشندى : ان المكاتبات السلطانية أو الملكية اذا صدرت بدون ختم سميت منشوراً . وهو ما يكتب بالاقطاعات[3] . وكان يسمى فى أيام الايوبيين بـ « التوقيع » . وفى أيام الفاطميين بـ « السجل » . وفى زمن العباسيين بـ « المقاطعة » أو « القطيعة »[4] .

ويشير ابن شاهين الى أهمية الانشاء بقوله : « واما كتابة الانشاء فهي من مقومات الملك ، وقواعد المملكة . وصاحبها المباشر لها في خدمة السلطان ، معدود من أكبر الاعضاء ، والاعوان ، قائم فى اهتمام مقاصده ، واغراضه مقام الترجمان . نازل منه منزلة القلب ، واللسان ، من الانسان . فانه المطلع على الاسرار ، المجتمع لديه خفايا الاختبار ، المنتفع به فى طريقى النفع ، والاضرار .... »[5] .

---

(١) ص ٤٩٠ .
(٢) ج ٥ ص ٤٦٤ ـ ٥
(٣) صبح الاعشى ج ١٣ : ١٥٧ .
(٤) صبح الاعشى ج ١٣ ص ١١٨ ـ ١٥٧ .
(٥) زبدة كشف الممالك ٩٩ .

٧ ـ أثر بغداد في تعميم التوقيعات في البلاد الاسلامية :

ولقد كان لبغداد أثر كبير فى الحضارة العربية التى عمت الاقطار الاسلامية . فقد اقتبست البلاد الاسلامية كثيراً من الانظمة العباسية ، التى ابتكرت ببغداد ، ونمت وترعرعت فيها .

ويمكننا أن نشير الى أن انظمة البلاط المصرى ، فى زمن الخلفاء الفاطميين بمصر اقتبست من نظام البلاط العباسى ببغداد . ويظهر ذلك جلياً بعد ان انتقلت الخلافة العباسية من بغداد الى القاهرة . وأصبح لبلاط المماليك فى القاهرة طابع خاص لم يكن معروفاً قبل انتقال الخلافة العباسية من العراق الى مصر .

واما الدواوين فقد نظمت فى البلاد الاسلامية ، وعينت فيها وظائف كبار الموظفين ، واختصاصاتهم على غرار ما كان متبعاً ببغداد فى خلافة العباسيين .

و « التوقيعات » انما راج استعمالها ببغداد ، ومنها انتشرت وذاعت فى سائر البلاد سواء كانت هذه « التوقيعات » ادارية ، أم تدريسية ، أم لتقليد القضاة ، والمحتسبين وغيرهم . وكانت الشام ، ومصر بوجه خاص تحتفل بهذه « التواقيع » و « التقاليد » بحملها بين أيدى السلاطين ، والملوك ، وبقراءتها على المنابر فى الجوامع والمدارس ، والناس قيام ينظرون ، على غرار ما كان متبعاً ببغداد على عهد العباسيين .

ويمكننا ان نقول : ان الدول الاسلامية تأثرت بكل ما كان ببغداد عندما كانت اقطارها تابعة للخلافة العباسية بوجه عام . وحاولت فى اثناء ذلك ، وبعد استقلالها عن بغداد تقليد العاصمة العباسية ببناء المدارس[1]، وفي اجراء الجرايات على طلابها ، وفى الخدمات الاجتماعية ، وفى التأنق فى الملبس ، والمشرب ، والمسكن ، وفى التوقيعات التدريسية ، والتوقيعات المختلفة الاخرى ، وفى كل الامور الحضارية بوجه عام .

ويظهر أثر بغداد واضحاً فى السفارات التى كان يرسلها الخلفاء الى

---

(١) تاريخ علماء المستنصرية ص ٧ .

البلاد الاسلامية ، والاجنبية تحمل الخلع ، والتقاليد الى الملوك ، والسلاطين ، والامراء .

ويمكن القول : ان تأثير بغداد ظل مفعوله قوياً فى هذه الامور حتى بعد احتلال المغول لها . فقد طبعتهم بغداد بطابعها الخاص حين عمرت قلوبهم بالاسلام . وقوّمت السنتهم بالعربية . ومدنتهم بحضارتها حين اشاعت بينهم تقاليدها وعاداتها ، وانظمتها .

٨ ـ أهمية التوقيعات ، وقيمتها العلمية :

على ان التوقيعات المختلفة التى ذكرناها ، والتى لم نذكرها تعد ذات قيمة حضارية كبيرة . فهى تطلعنا على كثير من الانظمة ، التى كانت متبعة يومئذ فى البلاد الاسلامية . وتمدنا بمعلومات وافية عن الالقاب ، والوظائف ، واحوال التعليم ، والمدرسين ، وأخبار موظفي الدولة ، والاحتفالات التى تقام لهم ... الخ .

وفى هذه التوقيعات فوائد لغوية ، فهى بمثابة معجم لكثير من الالفاظ ، والمصطلحات الفنية التى كانت تستعمل آنذاك ، فى مختلف شؤون الحياة ، وبواسطتها يمكن الوقوف على مبلغ رقي فن الكتابة ، حيث يختلف توقيع عن توقيع فى اسلوبه ، واهدافه تبعاً لاختلاف الاقطار الاسلامية ، وتباين الثقافات ، واختلاف الحكام . بل تختلف حتى فى الابتداء ، والانتهاء . كما تختلف في العلامات التي يوقّع بها الحكام .

ولعل العبارات والجمل الآتية وهى : « رب اختم بخير » و « الحمد لله رب العالمين » و « الحمد لله على نعمه » كانت فيما يظهر من العلامات التى استعملت ببغداد فى خلافة العباسيين ، وبالقاهرة فى خلافة الفاطميين .

وقد احتوت « التوقيعات » اضافة الى ما ذكر ، على بشائر بفتح ، أو انتصار . أو بولادة مولود . أو على تعزية . أو تقليد سلطنة . أو تولية مُلك . أو تنصيب لرأس المشيئة ، أو للجائليق . أو على كتاب من كتب « الانهاء » .

وكان كثير منها يحتوى على آيات قرآنية ، أو احاديث نبوية ، أو امثلة سائرة ، أو حكم بليغة .. الخ كما اسلفنا .

وتعتبر هذه الوثائق والنصوص الحضارية المختلفة ذات قيمة كبيرة لطلاب الدراسات التاريخية فى الجامعات العربية والاسلامية فى اقسام « البكلوريوس » أو « الليسانس » أو الدراسات العليا فى « الماجستير » و « الدكتوراه » لانها بمثابة بحوث أساسية تمهد لهم السبيل الى دراسات أعم ، واشمل فى هذه الحقول التاريخية الزاهرة وثمارها اليانعة التى لا تزال بحاجة الى شىء كثير من التقصي والتحري ، والدرس والتحليل .

٩ - الاحتفال بالتواقيع والتقاليد :

ذكر المقريزى فى حوادث سنة ٦٠٤ هـ[١] ان الخليفة الناصر لدين الله العباسى ، سيّر من بغداد الشيخ شهاب الدين السُهروردى الى الملك العادل بدمشق ومعه : « التشريف الخليفتي » ، و « التقليد » وذكر ان الوزير الصاحب صفى الدين قرأ « التقليد » قائماً على كرسى ، والملك العادل وسائر الناس قيام اجلالاً للخليفة . وجرى مثل ذلك للملك الكامل بمصر .

وذكر المقريزى أيضاً فى حوادث سنة ٦٤٣[٢] ان رسولين للخليفة المستعصم وصلا القاهرة ومعهما : « التقليد » و « التشريف الاسود » فنصب المنبر وصعد عليه أحد الرسولين وهو : جمال الدين عبدالرحمن بن محيي الدين يوسف بن الجوزى مدرس الحنابلة بالمستنصرية وقرأ « التقليد » بالدهليز السلطانى . والسلطان : الملك الصالح نجم الدين قائم على قدميه حتى فرغ من القراءة . ثم ركب السلطان بالتشريف الخليفتي .

وذكر اليونيني في حوادث سنة ٦٥٨هـ ان « تقليداً » بتعيين قاضي

---

(١) كتاب السلوك ص ١٦٧ - ١٦٨ .
(٢) السلوك ص ٣٢٣ .

قضاة قرىء على منبر فى صحن الجامع ببعلبك . كما ذكر ان « تقليداً » آخر بتعيين قاضٍ قرىء بشباك الحكم بالجامع بدمشق في سنة ٦٥٨هـ ايضاً[١] .

وذكر المقريزى أنه قرىء على المنابر : « توقيع » للملك الظاهر بابطال ضرائب على الناس بلغت ٦٠٠ الف دينار[٢] .

وجاء فى ذيل مرآة الزمان[٣] فى حوادث ذى الحجة من سنة ٦٥٩هـ ان المؤرخ « أبا شامة » حضر قراءة « تقليد » ابن خلكان . قضاء البلاد الشامية بالشباك الكمالى ، بجامع دمشق ، وهو يتضمن تفويض الحكم اليه ، في جميع بلاد الشام ، من « العريش » الى « سلمية » ، يستنيب فيها من يراه اهلاً . وفوض اليه النظر فى اوقاف الجامع ، والمصالح ، والبيمارستان ، والمدارس ، وجميع أوقاف الشام ظاهراً ، وباطناً . وفوّض اليه تدريس سبع مدارس وهى : العادلية ، والعذراوية ، والناصرية ، والفلكية ، والركنية ، والاقبالية ، والبهنسية[٤] .

وجاء فى كتاب السلوك[٥] للمقريزى : ان « تقليداً » للملك السعيد ابن الظاهر بيبرس قرىء بحضور اعيان الدولة بايوان القلعة المعروف بدار العدل بمصر فى ثالث عشر صفر سنة ٦٦٧ هـ . وكان من انشاء المولى فخر الدين بن لقمان وخطه . وجاء فى نهايته : « ونسأل كل واقف على هذا « التقليد » أو من يسمع به من الامراء ، والنواب ، والعساكر المنصورة ايدهم الله تعالى امتثال أمره ، والقيام بما يجب عليه من طاعته فى سره ، وجهره . والنهوض فى خدمة ركابه . والاجتهاد فى تسهيل ما يصعد من طلابه ، والمسير عند سيره تحت علمه . والالتجاء فى السراء ، والضراء الى حرمه . والوفود الى جنابه المنيع ، المريع . فهو بحمد الله كعبة تحج اليها

---

(١) ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٥٦ .
(٢) السلوك ٤٣٧ ـ ٤٣٨ .
(٣) ج ١ ص ٤٦٠ .
(٤) اليونيني ج ١ ص ٤٦٠ .
(٥) ص ٩٧١ .

الآمال . وحرم تخفف ما على الاعناق ، من اعباء الخدم الثقال .

والاعتماد على الخط الشريف أعلاه . وكتب فى عاشر صفر سنة سبع وستين وستمئة » .

وكانت « التواقيع » تخرج على صور مختلفة بحسب العصور التى مرت بها الدول الاسلامية . منها على سبيل المثال : التقليد بتعيين الملك الاشرف : « رسم بالامر العالى ، المولوى ، السلطانى الملكى الاشرفى ، والملكى المعزى »[1] ، وقد تبلغ هذه الصيغ من النسب مبلغاً كبيراً كما سنشير الى ذلك فى الوثيقة الخاصة بتعيين ابن خلكان مدرساً فى المدرسة الامينية[2] .

وعندما كانت الخلع تفاض على الملوك ، أو الامراء ، او الوزراء كان « التقليد » بالسلطنة ، أو الامارة ، أو الوزارة يحمل اليهم . ويسار به أمامهم[3] .

وجاء فى كتاب السلوك[4] فى حوادث سنة ٦٩٤هـ قال : « ركب السلطان [الملك العادل] على عادة الملوك ، واللواء الخليفتي على رأسه ، و « التقليد بين يديه » .

وقال المقريزى فى حوادث سنة ٦٩٦ هـ : « ركب السلطان [الملك المنصور] وعليه الخلعة الخليفتية ، والتقليد محمول بين يديه »[5] .

وقال ايضاً فى حوادث سنة ٦٩٨هـ « ركب السلطان [الملك الناصر] بخلعة الخلافة والتقليد بين يديه »[6] .

١٠ ـ كتب « الانهاء » :

ويظهر ان العادة التى كانت جارية ببغداد أن « التواقيع » والتقاليد »

---

(١) اليونيني ج ١ ص ٥٦ .
(٢) راجع التوقيع المرقم (٢) من هذا البحث .
(٣) اليونيني ج ١ ص ٥٢ .
(٤) ص ٨٠٨ .
(٥) السلوك ٨٢٣ .
(٦) السلوك ٨٧٣ .

المذكورة كانت تُتْبَع بكتاب جوابي يطلق عليه : « انهاء » وهو الكتاب الذي يبعث بـه الشخص المقلَّد الذى صـدر له « توقيع » بوظيفة معينة كتقليد الوزارة ، أو تعيين وكيل لخليفة أو تعيين صدر بديوان الزمام .

وكان الشخص المعين أو الموقع له يكتب هذا « الانهاء » بنفسه جواباً على توليته تلك الوظيفة سـواء كانت التولية « مشـافهة »[1] أم تحريرية بتوقيع يسمى « انهاء » ينهي فيه ما جرى عليه الحال وما تجدد لـه بعـد صدور « التوقيع » بالتولية . ويسجل فيه شكره لمن صدر عنه « التوقيع » ان كان خليفة ، أو سلطاناً أو وزيراً ، مظهراً فيه ولاءه ، واخلاصه له[2] .

وقد جاء فى الحوادث الجامعة[3] المنسوب لابن الفوطى عدد من كتب « الانهاء » منها نصوص كاملة . ومنها كتب لم يذكر منها الا الجمل أو الآيات التي صُدِّرت بها . وتشير كتب « الانهاء » هذه الى ان الشخص المعين كان يخلع عليه ، ثم يمضي الى الديوان فيجلس به ويكتب « انهاءً » على جارى العادة .

الفصل الثاني

التوقيعات التدريسية ببغداد والشام

١ ـ تمهيـــد :

يظهر أن التوقيعات التدريسية ، لم تكن تصدر من الخلفاء ، أو الملوك ، أو الامراء ، الا بعد ان تطورت الدراسة من الجامع الى المدرسة والجامعة . فقد أصبح المدرسون يعينون بمرسوم خاص بعد ان انشئت المدارس ، وبعد أن خصصت للمدرسين المعاليم ، وهى المرتبات أو الجرايات . وعندما كان

---

(١) الحوادث الجامعة ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
(٢) الحوادث الجامعة ٢٨٠ ـ ٢٨١ .
(٣) ص ٢٠٢ و٢٠٣ .

التدريس فى المساجد لم يكن التعيين بتوقيع ، أو تقليد . أى انه لم يكن بمرسوم خليفتى ، أو ملكى ، أو أميرى ، أو وزيرى . ولم يكن لاصحاب الحلقات فى المساجد جرايات ، أو مرتبات . وانما كان التدريس حسبة لله تعالى ، لان العلم عند المسلمين ما كان يقوَّم بثمن أو يثمن بمال . أى لا يعادَل بمادة من معلوم ، أو مرتب ، أو جراية . ولذلك يمكننا ان نحدد تاريخ صدور « التوقيعات التدريسية » بوجه عام بتاريخ ظهور المدارس المستقلة عن المساجد ، والتى كان التدريس فيها يجري بحسب انظمة معروفة ، وشروط معينة .

وبالرغم من كثرة المدارس التى انشئت فى البلاد الاسلامية فى العصور العباسية وبعدها فاننا لا نجد من « التوقيعات التدريسية » الا النزر اليسير . ولعل السبب فى ذلك ان هذه التوقيعات لم تكن تدون لانها توقيعات شخصية تتعلق بالمدرسين ، ترسل اليهم عند تعيينهم للتدريس فى المدارس فيحتفظون بها ولم يحررها المؤلفون . أو لعلها ضاعت فيما ضاع من الوثائق ، والكتب الخطية . فالنعيمى الذى يذكر الشىء الكثير عن المدارس العربية فى بلاد الشام فى جزئى كتابه « الدارس فى تاريخ المدارس » ويترجم لمئات من المدرسين فيها لا يذكر الا توقيعا واحداً[1] من التوقيعات التى نحن بصدد دراستها . وقل مثل ذلك عن المدارس العراقية فى العهود العباسية والمغولية حيث لا نجد ايضاً الا توقيعاً واحداً هو[2] الذى اصدره الخليفة الناصر لدين الله عندما ولى ضياء الدين التركستانى مدرساً بمشهد ابى حنيفة ومدرسته سنة ٦٠٤هـ .

وما يذكر عن « التوقيعات التدريسية » ينطبق على التواقيع ، والعهود الاخرى التي فقدت أو ضاعت أو لم تدون[3] .

ولعل من أوائل « التوقيعات » التدريسية « التوقيع » الذى اصدره

---

(١) الدارس ج ١ ص ٢٤٨ .
(٢) الجامع المختصر ص ٢٣٣ .
(٣) ابن شاهين ص ٨٩ .

السلطان سنجر السلجوقي بتعيين محمد بن يحيى مدرساً في نظامية نيسابور في الربع الاول من القرن السادس الهجرى[1] بين سنتى ٥١١ و ٥٢٢هـ . ولعل اصدار هذه « التوقيعات » في هذه البلاد كان يجرى تبعاً لما كان يعمل به ببغداد منذ ان أسس نظام الملك المدرسة النظامية ببغداد ، وتقليداً لما كان متبعاً في المدارس البغدادية الاخرى . نقول ذلك بالرغم من اننا لم نعثر على « تقليد » أو « توقيع » في الفترة الزمنية المحصورة بين السنة ٤٥٩هـ وهي سنة افتتاح النظامية ، ومدرسة ابى حنيفة والسنة ٦٠٤هـ وهي السنة التى صدر فيها « توقيع » الخليفة الناصر لدين الله العباسى بتعيين ضياء الدين احمد بن مسعود التركستانى الحنفى مدرساً بمشهد ابى حنيفة ومدرسته وناظراً في وقوفهما[2] .

٢ ـ التوقيعات التدريسية ببغداد :

ويمكننا ان نذكر أن هذه التوقيعات احتوت على امور تتعلق بمنصب التدريس ، وأهمية المدرس حيث لم يكن يعين للتدريس الا من عُرف بعلمه ، وعفته ، وسداد آرائه[3] ، وتقواه ، وخشية الله ، وطاعته ، مستشعراً ذلك في علنه وسريرته .

كما انها تبين للمدرس طريقة التدريس التى ينبغى عليه اتباعها ، كأن يذكر الدرس على « اكمل شرائط ، واجمل ضوابط ، مواظباً على ذلك ، سالكاً فيه اوضح المسالك » .

وكان يذكر فيها ما يخصص للمدرس شهرياً من جرايات عينية ، ومرتبات نقدية وذلك بموجب ما استؤمر فيه من المخزن المعمور .

كما كان يشار في التوقيع الى الامور الاخرى التى يكلف النظر فيها من

---

(١) راجع مجلة يادگار الفارسية عدد كانون الثاني وشباط سنة ٩١٤٥ ص ٤١ ـ ٤٣ . وقد حكم سنجر من السنة ٥١١هـ حتى السنة ٥٢٢هـ .

(٢) الجامع المختصر ج ٩ ص ٢٣٣ .

(٣) ابن الساعي ج ٩ ص ٢٣٣ .

غير الشؤون التدريسية ، كالنظر فى الوقوف المحبّسة على المدرسة التى عين مدرساً فيها . واستنمائها ، واستثمار حاصلها ، وتنمية وارداتها ، ومراقبة المستخدمين في هذه الاوقاف .

كما ان عليه ان ينظر فى عمارة المدرسة ، والمكتبة . وان يتعهدهما . ويلزم القوّام بالمواظبة على الخدمة فيهما ، والمتفقهة بملازمة الدروس ، واثبات الكتب ، ومعارضتها بالفهارس . وله ان يأمر خازن المكتبة بمراعاة الكتب وتنظيمها . وان لا يخرج منها الا الى ذى امانة مستظهراً بالرهن عن ذلك .

ومما تجدر ملاحظته ان أول توقيع تدريسى عثرنا عليه ببغداد يتعلق بمدرسة بغدادية هي مدرسة ابى حنيفة يرجع تاريخه الى السنة ٦٠٤هـ ويظهر ان البلاد الاسلامية اخذت تحذو حذو بغداد في هذا الامر منذ أن اسست المدارس ببغداد . وقد استطاعت بغداد ان تسن للبلاد الاسلامية ليس فقط طريقة التوقيعات وانما شرّعت لها بناء المدارس المستقلة ، والجامعات الكبرى ، وجمع المذاهب الفقهية الاربعة في بناية واحدة فحذت حذوها مصر وغيرها[١]. ومما يدل على ذلك ، اننا لم نعثر على توقيع مماثل الا بعد ثلاثة ارباع القرن من تاريخ هذا التوقيع وذلك عندما عين « ابن خلكان » مدرساً فى المدرسة « الامينية » بدمشق سنة ٦٧٩هـ[٢] . ومن ثم صرنا نلحظ وجود بعض التوقيعات الاخرى فى هذا القرن ، والقرن الذى تلاه . فى بعض البلاد الاسلامية .

ان التوقيع الذى يتعلق بمدرسة ابى حنيفة ببغداد افتتح بالبسملة ، ثم بحمد الله ، والثناء عليه ، ثم بذكر دار الخلافة ، ونعتها بالدار العزيزة ، ثم الخلوص من ذلك الى ذكر الخليفة والدعاء بدوام الدولة ، ثم بالشهادتين ، والصلاة على رسول الله (ص) وعلى ادنى ولده وابعد جده . ثم يفيض التوقيع بعد ذلك كله بصفات المدرس ، الذى خرج « التوقيع » بتعيينه وهو الغرض المقصود من التوقيع .

---

(١) تاريخ علماء المستنصرية ص ٧ .
(٢) اليونيني ج ٤ ص ٣٧ ـ ٣٩ .

ويختتم التوقيع بتقدير التدريس ، وضرورة المبادرة بالعمل بما جاء موضحاً فى هذا التوقيع من غير توقف أو تردد . ثم ينهى بتدوين اليوم ، والشهر والسنة الهجرية التى تم فيها هذا التوقيع . وأخيراً يذيل بعلامة « المخزن المعمور »[1] .

٣ ـ التوقيعات التدريسية بالشام :

اما فى الشام فقد كانت التوقيعا تالتدريسية تستهل اما بحمد الله أو بالجملة « رُسم بالامر العالى أن يرتَّب .. فلان .. في ... » وبعد أن يخلص الى الغرض المقصود ، ويشرح شرحاً وافياً يختم بوجه عام بهذه الكلمة : « والخط الكريم أعلاه حجة بمقتضاه » . وذلك بعد أن تُعدد صفات المدرس ويشاد بفضله ، وتضلعه فى العلوم ، ومقارنته بفحول العلماء . في جمل مسجوعة ، قد تكون متكلفة احياناً . وقد تكون آية فى البلاغة احياناً أخرى[2] .

وقد تخرج التوقيعات احياناً عن القصد فتتحول الى قطع ادبية رائعة يتلاعب كتابها بالالفاظ . ويتبارون فى انتقاء الكلمات ، وصوغ المعانى المبتكرة . ويُغرقون فى مديح المدرس الذى صدر التوقيع بتوليته التدريس . ويذكرون من الجمل ، والكلمات ، والاوصاف ما يناسب تخصصه فى العلوم التى سيقوم بتدريسها . كالاجتهاد فى نصرة مذهب ، أو العمل بظاهر الحديث ، أو تدريس العربية ، أو علم الشرع ، أو علم الخلاف ، أو ما الى ذلك[3] .

وكان المدرس فى هذه الديار كالمدرس فى العراق يجتهد فى نظر وقوف مدرسته . ويعمل على تنفيذ شرط الواقف . ويسعى فى خدمة أهل

---

(١) الجامع المختصر لابن الساعي ج ٩ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧ .
(٢) اليونيني ج ٤ ص ٣٧ ـ ٣٩ .
(٣) الوافي ج ٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٨ واليونيني ج ٤ ص ٣٧ ـ ٣٩ والوافي ج ٤ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

العلم الشريف من أى بلد عربى أو اسلامى كانوا . ولا غرابة فى ذلك فقد كان العالم الاسلامي يومئذ يمثل وحدة متماسكة لا يفصل بينها حدود ولا حواجز على العكس مما عليه هذه البلاد اليوم .

وكان يذكر في التوقيعات التدريسية بوجه عام اسم المدرسة التى صدر « التوقيع » بتقليد التدريس فيها لاحد المدرسين ، وفُوِّض النظر فيها اليه . كما كان يذكر فى هذه الوثيقة : اسم المدرس ، وصفاته ومزاياه . وقد يطنب « التوقيع » فى اوصاف المدرس اذا كان مشهوراً جداً ، او ممن انتهت اليهم رئاسة العلم . وكثيراً ما كان يذكر فى « التوقيعات » التدريسية مثل الجمل التالية يخاطب بها المدرس للمبادرة بالتدريس .

« وليباشر ذلك على قاعدته فيه ، وعادته ، والاعتماد على الخط الكريم اعلاه ان شاء الله تعالى »[1] . أو « الاعتماد على الخط الشريف اعلاه »[2] أو « فليباشر ما فُوِّض اليه ... » ... الخ .

الفصل الثالث

نماذج من التوقيعات التدريسية

وسنقدم فى هذا الفصل عدداً من التوقيعات التدريسية التى جمعناها مع شروح موجزة لها ، وتراجم مختصرة لكتابها ، وللمدرسين الذين وردت اسماؤهم مقرونة بها ، والمدارس التى عينوا فيها بعد أن افضنا فى شرح التواقيع وتطورها منذ ان كانت جملاً وعبارات بسيطة الى ان اصبحت فناً له اسسه وقواعده . والى ان خرج بعضها عن القصد الى المباراة اللغوية المسجوعة ، والالقاب العديدة الغريبة فى صيغتها وفى نسبتها[3] .

---

(١) اليونيني ج ٤ ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٢) السلوك ص ٩٧١ .

(٣) لاحظ الالقاب التي اضفيت على ابن خلكان في التوقيع المرقم (٢) والاوصاف التي وصف بها المجلس الكاملي والامر السلطاني فقد اربت على الاربعين .

وقد حاولنا بقدر الامكان تصحيح بعض العبارات والكلمات المغلوطة أو المصحفة فيها • ومع ذلك لم تخل بعض النصوص من الاضطراب كما يلاحظ ذلك في التوقيع الثاني والثالث • وعُنينا أيضاً بوضع الفواصل بين أجزائها المختلفة • وشرح ما غمض منها • وضبط أعلامها ، وبعض كلماتها بالشكل •

١ ـ توقيع بتعيين مدرس في مدرسة ابى حنيفة

ذكر ابن الساعى فى حوادث سنة ٦٠٤ هـ ان « توقيعاً » صدر من « المخزن المعمور »[١] بتعيين « ضياء الدين احمد بن مسعود التركستانى[٢] الحنفى مدرساً بمشهد[٣] ابى حنيفة ، ومدرسته[٤] ، وناظراً فى وقوفهما .

---

(١) المخزن عند العباسيين هو بيت المال • وكان يطلق على ديوان الخراج ، وهو : ديوان أموال الدولة • ويوصف بالمعمور • ويقابل وزارة المالية • ويقال « صدر المخزن » ويقابل اليوم وزير المالية • وفي المغرب أي في مراكش تسمى الوزارة اليوم « المخزن » •

(٢) ضياءالدين أحمد بن مسعود التركستاني : « قدم بغداد واختص بخدمة الوزير ناصر بن مهدي العلوي فكان ينفذه من الديوان الى الاطراف وجعل يعرض على الوزير الرقاع للناس » وكان رئيس الحنفية في خلافة الناصر لدين‌الله • كان يدرس بمشهد ابى حنيفة مرتين في الاسبوع • وكان يروي الحديث في حلقة الحنفية بجامع القصر في كل جمعة • توفي سنة ٦١٠هـ وصلي عليه بالمدرسة النظامية • ودفن في مقبرة الخيزران المجاورة لمشهد ابى حنيفة بالاعظمية • [الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج ١ ص ١٢٥] •

(٣) مشهد ابى حنيفة : في سنة ٤٥٩هـ بنى أبو سعد الخوارزمي على قبر ابى حنيفة (ر) قبة عالية عظيمة • وعمل تحتها « ملبنا » وهو ما نسميه اليوم بـ « القفص » • وعمل بين يديه رواقاً ، وصحناً • وجعله مشهدا كبيرا • وبنى القبة مرة أخرى السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤١هـ ولا تزال القبة ماثلة حتى اليوم • وقد جدد السلطان مراد الرابع كلاً من المسجد والمشهد • وجددت ام السلطان عبدالعزيز سنة ١٢٨٨هـ هذا المشهد ، ووسعته • وقد عنيت الجمهورية العراقية بزخرفة المسجد على أيدي صناع ماهرين من عراقيين ومغاربة •

(٤) مدرسة ابى حنيفة • بناها شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفى المملكة للسلطان الب ارسلان السلجوقي • وافتتحها سنة ٤٥٩هـ • ورتب فيها لاصحاب ابى حنيفة درساً • واوقف

وذلك عندما خُلع عليه ، وولي التدريس . كتبه له « مجد الدين محمد بن جميل »[1] كاتب « المخزن » وذلك في خلافة الناصر لدين الله العباسى ، لتسع بقين من ذى القعدة سنة ٦٠٤هـ . وقد نقله ابن الساعى من خطه . وهذه نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله المعروف بفنون المعروف والكرم . الموصوف بصنوف الاحسان ، والنعم . المتفرد بالعظمة ، والكبرياء ، والبقاء ، والقدم . الذى اختص الدار العزيزة ، شيد الله بناها . وأشاد مجدها ، وعلاها ، بالمحل الاعظم ، والشرف الاقدم . وجمع لها شرف البيت العتيق ذي الحرم ، الى شرف بيت هاشم الذي هشم . جاعل هذه الايام الزاهرة ، الناضرة ، والدولة القاهرة الناصرة ، عِقدا في جيد مناقبها ، وحليا يجول على ترائبها . ادامها الله ـ تعالى ـ ما انحدر لثام الصباح ، وبرح خفاء براح[2] . أحمده حمدَ معترِف بتقصيره عن واجب حمده ، مغترف من بحر عجزه ، مع بذل وسعه وجهده . وأشهد ان لا اله الا اللهُ وحده لا شريك له ، وهو الغني عن شهادة عبده . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، الذى صدع بأمره . وجاء بالحق من عنده ـ صلى

عليهم ضيعة يصرف مغلها عليهم . وكان أول مدرس فيها أبو طاهر الياس ابن ناصر المتوفى سنة ٤٦١هـ . وقد دفن بمقبرة الخيزران . ومرت هذه المدرسة بأدوار مختلفة فسميت بكلية الامام الاعظم ، وكلية العلوم الدينية والعربية . وسميت كلية الشريعة أخيرا . والحقت بجامعة بغداد سنة ١٩٦٢م بعد أن كانت تابعة لمديرية الاوقاف العامة .

(١) محمد بن جميل : محمد بن ابى العز الفزاري من أهل « جبّا » المعروفة اليوم بـ « جبة » . استوطن بغداد صغيرا . ودرس فيها العلوم الابتدائية حتى صار من الادباء البلغاء . ومدح الناصر لدين الله . وتولى النظر في « ديوان التركات الحشرية » وهم الذين يموتون من دون وارث الا من ذوي الارحام . وتولى « كتابة المخزن » ثم « صدرية المخزن » سنة ٦٠٥هـ بالاضافة الى نظارة دجيل ، وطريق خراسان ، والخالص والخزانة والعقار . وكانت وفاته ببغداد سنة ٦١٦هـ ودفن بمقابر قريش أي في الكاظمية .

(٢) برح الخفاء : زال . وما برح يفعل كذا : أي ما زال . والمعنى زال السر فوضح الامر . وقال بعضهم : الخفاء : المتطأطىء من الارض . والبراح : المرتفع . أي صار الخفاء براحاً . راجع « مجمع الامثال » للميداني ص ١٠٠ .

الله عليه ـ صلاة تتعدى الى ادنى ولده ، وأبعد جده حتى يصل عِتْقُها الى أقصى قُصَيَّه ونزاره ومعدّه .

المدرس :

وبعد فلما كان الاجل ، السيد ، الاوحد ، العالم ضياء الدين شمس الاسلام ، رضي الدولة ، عز الشريعة ، علم الهدى ، رئيس الفريقين ، تاج الملك ، فخر العلماء أحمد بن مسعود التركستانى ، ادام الله علوه ممن أعرق في الدين منسبُه ، وتحلى بعلوم الشريعة أدبه ، واستوى في الصحة مغيبه ، ومشهده . وشهد له بالامانة لسانُه ويدُه . وكشف الاختبار منه عفة ، وسداداً . وأبت مقاصده الا أناة واقتصاداً . رأى الاحسان اليه ، والتعويل عليه في التدريس بمشهد ابي حنيفة رحمة الله عليه ، ومدرسته . وأسند اليه النظرَ في وقف ذلك أجمع ، لاستقبال حادى عشري ذى القعدة سنة اربع وستمائة الهلالية وما بعده وبعدها . وأمره بتقوى الله جلت آلاؤه ، وتقدست اسماؤه التى هى ازكى قربات الاولياء ، وأنمى خدمات النصحاء ، وأبهى ما استشعره ارباب الولايات ، وأدل الادلة على سبل الصالحات ، وفاعله بثبوت القدم خليق ، وبالتقدم جدير . قال الله تعالى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » .

طريقة التدريس :

وأن يذكر الدرس على اكمل شرائط ، واجمل ضوابط . مواظبا على ذلك ، سالكا فيه أوضح المسالك ، مقدما عليه تلاوة القرآن المجيد على عادة الختمات فى البكر ، والغدوات ، متبعا ذلك بتمجيد آلاء الله ، وتعظيمها ، والصلاة على نبيه ـ صلى الله عليه ـ صلاة يضوع أرج نسيمها شافعا ذلك بالثناء على الخلفاء الراشدين ، والائمة المهديين ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ والاعلان بالدعاء للمواقف الشريفة ، المقدسة ، النبوية ، الامامية ، الطاهرة ، الزكية ، المعظمة ، المكرمة ، المجدة ، الناصرة لدين

الله تعالى ، ولا زالت منصورة الكتب ، والكتائب ، منشورة المناقب ، مسعودة الكواكب والمواكب ، مسودة الأهب[1] مبيضة المواهب ، ما خَطَبَ الى جموع الاكابر ، وعلى فروع المنابر خطيب وخاطب .

مادة الدرس :

وأن يذكر من الاصول فصلا يكون من سهام الشبه جُنّة ، ولنصر اليقين مظنة . متبعا من المذهب ، ومفرداته ونكته ومشكلاته ، ما ينتفع به المتوسط ، والمبتدي ، ويتبينه ويستضيء به المنتهي . وليذكر من المسائل الخلافية ما يكون داعيا الى وفاق المعاني ، والعبارات . هاديا لشوارد الافكار ، الى موارد المنافسات . ناظما عقود التحقيق في سلوك المحاقّات . مصوباً اسنة البديهة الى ثغر الاناة ، معتصما في جميع أمره بخشية الله ، وطاعته ، مستشعرا ذلك في علنه ، وسريرته .

الجرايات والمرتبات :

والمفروض له عن هذه الخدمة فى كل شهر ، للاستقبال المقدم[2] ذكره ، من حاصل الوقف المذكور لسنة تسع وتسعين الخراجية وما يجري معها من هلالية ، وما بعدها . أسوة بما كان لعبد اللطيف بن الكيال[3] : من الحنطة كيل البيع ثلاثون قفيزا . ومن العين الامامية عشرة دنانير . يتناول ذلك شهرا فشهرا مع الوجوب والاستحقاق للاستقبال المقدم ذكره من حاصل الوقف المعين للسنة المبينة الخراجية وما بعدها ، بموجب ما استؤمر فيه من المخزن المعمور أجلّه الله تعالى . وأذن ، فليجر على عادته المذكورة وقاعدته .

---

(١) مفردها أهبة وهي العدة . ومسودة الأهب : اشارة الى شعار العباسيين الاسود .

(٢) اي استقبال حادي عشري ذى القعدة .

(٣) عبداللطيف بن الكيال : أبو المحاسن بن نصرالله الواسطي ، من فقهاء الحنفية . ولي التدريس بمدرسة ابى حنيفة سنة ٥٩٤هـ . وتولى القضاء بواسط . وكانت ولادته سنة ٥٤٠هـ ووفاته بواسط سنة ٦٠٥هـ .

واجبات المدرس :

ولتكن صلاتُه وجماعتُه في جامع القصر الشريف[1] في الصُفَّة التى لاصحاب ابي حنيفة ـ رحمة الله عليه ـ . وليصرف حاصل الوقوف المذكورة في سبلها بمقتضى شرط الواقف المذكور فى كتاب الوقفية ، من غير زيادة فيها ، ولا عدول عنها ، ولا حذف شيء منها • عالما أنه مسؤول في غده عن يومه وأمسه . وأن افعال المرء صحيفة له في رمسه . وليبذل جهده في عمارة الوقوف المذكورة ، واستنمائها ، واستثمار حاصلها ، وارتفاعها[2] • مستخيرا من يستخدمه فيها من الاجلاد الامناء ، ذوي العفّة ، والغَناء . متطلعا الى حركاتهم ، وسكناتهم . مؤاخذا لهم على ما لعله يتصل به من فُرُطاتهم ، لتكون الاحوال متسقة النظام ، والمال محروسا من الانثلام . وليبتدىء بعمارة المشهد ، والمدرسة المذكورين ، واصلاح فرشها ، ومصابيحها ، وأخذ القُوام بالمواظبة على الخدمة بها ، والزام المتفقهة[3] بملازمة الدروس ، وتكرارها واتقان المحفوظات واحكامها .

خزانة الكتب :

وليثبت[4] ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها ، معارضا ذلك بفهرسته ، متطلبا ما عساه قد شذ منها . وليأمر خازنها بعد استصلاحه بمراعاتها ، ونفضها فى كل وقت ، ومرمة شعثها . وان لا يخرج شيئا منها الا الى ذى امانة ، مستظهرا بالرهن عن ذلك .

---

(١) جامع القصر: هوجامع الخلفاء ببغداد • أنشأه الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ) وأحرقه المغول سنة ٦٥٦هـ وجدده علاءالدين الجويني سنة ٦٧٠هـ • وفي العصور المتأخرة انتهبت أرضه ، ولم يبق منه الا جامع صغير نقض سنة ١٩٥٧م ، وادمجت أرضه في شارع الجمهورية • اما منارته فتعرف اليوم بمنارة سوق الغزل • وقد سقطت واعيد بناؤها سنة ٦٧٨هـ في زمن اباقا بن هولاكو • ولا تزال قائمة حتى اليوم •

(٢) الارتفاع : الخراج والواردات •

(٣) المتفقهة : الطلاب الذين يدرسون الفقه • وقد يطلق عليهم فقهاء باعتبار ما سيكونون •

(٤) من الاثبات وهو التسجيل في السجلات •

قيمة التدريس :

وليتلق هـذه الموهبة بشكر يرتبطها ، ويدر أخلافها[1] ، واجتهـاد يضبطها ، ويؤمن إخلافها[2] . وليعمل بالمحدود له في هذا المثال[3] من غير توقف فيه بحال ـ ان شاء الله تعالى ـ . وكتب لتسع بقين من ذى القعدة من سنة اربع وستمائة . وحسبنا الله ، ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله الطاهرين الاكرمين وسلم »[4] .

العلامة

المخزن المعمور

٢ ـ توقيع بتعيين مدرس بالمدرسة الامينية

في العشر الآخر من محرم سنة ٦٧٩ تقـدم الملك الـكامل باضافـة الاعمال الحلبية الى قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلـكان[5] . وان يُعطى تدريس المدرسة « الامينيـة »[6] بدمشـق . وكتب لـه بالمدرسـة

---

(١) الاخلاف : الضرع .

(٢) الاخلاف : التعويض .

(٣) المثال : الامر ويريد به التوقيع الخليفتي .

(٤) ابن الساعي ج ٩ ص ٢٣٣ ـ ٢٣٧ .

(٥) ابن خلـكان : أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن ابى بكر البرمكي الاربلي . ولد بأربل سنة ٦٠٨هـ وتوفى بايوان المدرسة النجيبية بدمشق سنة ٦٨١هـ . تفقه بالموصل على كمال الدين بن يونس الذي تفرد باتقان العلم الرياضي ورحلت الطلبة اليه من الاقطار ـ وقرأ النحو فيها على ابى البقاء المعروف بابن الصائغ ثم قدم الشام . ودخل مصر وسكنها وناب في القضاء . وولى القضاء بالشام منفردا . وأضيف اليه مع القضاء ، نظر الاوقاف والجامع ، والمارستان ، وتدريس سبع مدارس . وكان بصيرا بالعربية ، علامة في الادب والشعر وايام الناس [الدارس ١ : ١٩١ ـ ١٩٣] .

(٦) المدرسة الامينية : مدرسة قديمة تقع بدمشق في سوق الحرير اليوم . وقديما كانت قبلى باب الساعات احد أبواب الجامع الاموي وهي فيما يقال أول مدرسة بنيت للشافعية بدمشق بناها اتابك العساكر الذي يقال له « امين الدولة ربيع الاسلام » المتوفى سنة ٥٤١هـ . وقد وقف المدرسة سنة ٥١٤هـ وكانت تسمى « حق الذهب » وبنى فيها أمين الدولة مسجدا . [الدارس ١ : ١٧٧ ـ ٢٠٥ و٢ : ٣٣٢] .

« الامينية » تقليد من انشاء كمال‌الدين أحمد بن العطار[1] وكان ذلك بيد قاضي القضاة نجم‌الدين بن سنا‌الدولة[2] .

ونسخته :

« الحمد لله الذي اطلع في فلك سادتنا شمس‌الدين بازغة الانوار . وأقام بنا بناء الحق ، مشيد الاركان على المنار . وجعل روض الفضل في ايامنا زاهراً ، تصبو اليه ابصار وقلوب ونفوس فما[3] يجف منه نجم الا نَشف من بعده سناء نجوم ، واقمار ، وشموس . ولا يذوي منه عود الا يروى بماء الرعاية منه اصول ، وفروع ، وغروس ، يبرّ بها لايامنا ان يبذل فيها الحسنات . أو يتعطل فيها مدارس آيات . والصلاة على سيدنا محمد ذي الحسب الصميم ، والدين القويم ، والشرع الهادى الى الصراط المستقيم . صلاة يحلي اللسان تكرارُها . ويملأ سواد القلب أنوارُها .

وبعد فان أحق من عمرت به العلوم الدارسة . وطلعت شموس فضله ، فتجلت بها كلمات الجهل الدايسة ، من كانت آية فضله شمسية ، اذا طلعت حَجَبَ النجمَ سناها . واذا تناهى في اشادة عليائه اعربها بمساعيه ، وحسن بناها . واذا تسابقت جياد الافكار في حلبة جدال عطف أعنتها الى الصواب وثناها . طالما حل الرتب العالية بجليل مقداره ، ودقيق افكاره . وجلا الرتب العالية بخفي تدبيره ، وجلىّ انواره . وماست على معاطف مناقبه ذوائب فخاره . وهامت الافكارُ في اودية محامده ، وما بلغت وصف محله ومقداره . وافتخر قلم الفتيا براحته ، وتباعد السيف عن قربه خوفا من مهابه . وسدد

---

(١) كمال‌الدين أحمد بن العطار : هو أحمد بن ابى الفتح بن محمود الحموي .

(٢) أبو بكر محمد بن قاضي القضاة صدرالدين ابى العباس يلقب بسنا الدولة درس بالمدرسة الامينية سنة ٦٦٩هـ كما درس بالركنية وعدة مدارس غيرهما . ناب في القضاء عن والده بدمشق ثم ولى قضاء القضاة عقب كسرة التتار على عين جالوت في شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ وولى قضاء حلب . ودمشق . [الدارس ١ : ١٩٠ ـ ١٩١] .

(٣) في الاصل : فيما يجف .

الحق سهام أحكامه ، فأصابت الاغراض • وشيد الصدق نظام كلامه فشفى صحيحه الامراض . فأن شرع في علم الشرع ، شفي انسان عن الجهل الارمداء . روى الحديث النبوى باسناده فما يصل احد الى مسند احمد . وان صال في الاصول فاليه منتهى فخار الرازي . أو حكم في الحكمة ، فابن سينا غير مساوٍ له ، ولا موازي له • وان نطق في المنطق فهو أثير زمانه ، وسراجه المنير • أو يحدث في علم العربية فهو أبو العباس تحقيقا غير تقدير . أو تكلم في علم الخلاف فهو الاوحد على الحقيقة . وكم له الى الحق من طريق ، وطريقة . وان قص ابناء السلف ، والخلف . وكل خطيب يثني عليه ، وابن عساكر لا تنجده[1] عساكر معلوماته لو كان بين يديه »[2] .

« ولما كان المجلس العالي ، القضائي ، الاجلي ، الصدري الكبيري ، الاوحدي ، الرئيسي ، الافضلي ، العالمي ، العاملي ، الكاملي الناسكي ، العارفي ، الاثري ، الحافظي ، الشيخي ، الامامي ، الحاكمي ، الشمسي ، شرف الاسلام ، فخر الانام ، زين العلماء ، اوحد الفضلاء ، وارث الانبياء محجة العرب العرباء ، بقية السلف ، مفتى الفِرَق ، صدر الحفّاظ ، شمس الشريعة ، قاضي القضاة ، سيد الحكام ، صفي الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين ، أبو العباس أحمد بن الشيخ الامام ابى عبدالله محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان البرمكى ، الشافعى . ضاعف الله جلاله ، وحقق في الدارين آماله . نظام هذا العِقد المليح . ومعنى هذا اللفظ الفصيح . وثمرة هذه الدوحة النضرة . ونَشْر هذه الروضة الخضرة . رسم بالامر العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الكاملي ، الشمسي لازال يقر الحق في يد مستحقه ، ويوضع لسالكه في سبله ، وطرقه[3] • ان يفوض

---

(١) في الاصل تتخذه ويظهر انها مصحفة .
(٢) اليونيني ٤ : ٣٧ ـ ٣٨ .
(٣) وردت « في سبلية . وطرفه » والصحيح ما دوناه . راجع ج ٤ ص ٣٩ . من اليونيني .

اليه تدريس المدرسة « الامينية » . ويجرى باسمه المعلوم[1] الشاهد به كتاب وقفها المبرور ، وذلك لما تعين سرف[2] مباشرها ، عند تبين اخلاله بشروط واقفها ، فيتقدم على خيرة الله تعالى ، ويذكر بها دروس فضله التي لا تدرس للأنام آثارها . ويغرس في قلوب طلبتها حب فرائده ، ليجتني ساعة غرسها ثمارها . ويجلو وجوه معارفه على خطابها ، ليبلى بمحاسنها ، ويتمتع . ويغذي اطفال الاذهان الرّضع بلبان فضله الى أن يتسنى بين يديه ، ويترعرع . ويعمر معناها بالعلم الذى تنكرت فيها معالمه . وخفي سناه ، حتى لا يدركه شاتمه ليجنى بها فضله الحسن السهل خالداً . ويغذو كل ظام من جعفره المعروف ، ومعروف جعفره وارداً . وتصبح هذه المدرسة كنيفاً ملىء علماً ، وقليباً حُشِيَ فهماً . وفلكاً يبدي شمساً[3] ، ويخفي نجماً . وكنانة يخرج من طلبتها في كل حين سهماً يراه متأمله شهماً . والله تعالى يحيي ببقاء علمه ما أماته الجهل ، ويؤنس بانفاسه ما استوحش من معاهد الخير والفضل ان شاء الله تعالى . كتب في ثالث عشرين المحرم سنة تسع وسبعين وستمئة »[4] .

٣ ـ توقيع باعادة تعيين مدرس بالمدرسة الامينية

في يوم الاربعاء عاشر صفر سنة ٦٨١ هـ فوّض الى قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان التدريس بالمدرسة « الامينية » بدمشق ، بعد ان انتزعت منه . وكتب له بها تقليد من نائب السلطنة بالشام الامير حسام الدين لاجين في ١٣ صفر سنة ٦٨١هـ وهو من انشاء المولى القاضي شرف الدين بن فضل الله في ديوان الانشاء ومضمونه :

« الحمد لله الذي أقر الحق في نصابه . وأعاد الامر الى من هو اولى به . ورد الفضل الى وطنه ، بعد معاناة اغترابه . ورفع منار العلم

---

(١) و (٢) وردتا في النص « العلوم » و « اجلاله » ويظهر انهما مصحفتان وصحيحهما « المعلوم » . و « اخلاله » واذا كانت الاخيرة غير مصحفة فلا يستقيم المعنى الا اذا قرأنا الكلمة « شرف » بدلا من « سرف » ليستقيم المعنى .

٣) يريد بالشمس : شمس الدين بن خلكان وبالنجم : نجم الدين بن سناء الدولة .

(٤) اليونيني ج ٤ ص ٣٩ .

للمسترشدين من طلابه . نحمده حمداً نستزيد به النعم . ونستفيد وسترد به فائت الشكر ، ونستعيد . ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له . شهادة من تيقن شهادته فأداها ، واجرى الله المشيئة بتزكية نفسه ، فآتاها هُداها . واشهد ان محمداً عبده ورسوله . خاتم رسله . ونبيه الذى ارسله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله . صلى الله عليه وعلى آلـه ، وصحبه الـكرام . أئمة الدين ، وخلفاء الاسلام . الذين سبقوا ونصروا وأعلنوا بالاسلام . وصابروا في الله وصبروا . وطلقوا الدنيا وهجروا . ما تُوج مفرق في الصبح من الشمس بتاج • وأمسى لذهب الاصيل بالافق امتزاج .

وبعدُ : فاما الامور الدينية اولى ما كانت عيون العناية بها متأملة ، وركائب الافكار نحوها متحملة • لتوضع الاشياء في مواضعها • وتقع الامور في أحسن مواقعها . فلا يقع الاشتباه مع غير الانظار والاشباه . ولا يوضع غير التيجـان بمكانها من المفـارق والجبـاه • واذا رقدت لحظـة الحظ أو سهت . وتخطت خطوة الخطـأ فما وقفت حيث انتهت ، ايقظت تلـك العنـاية الحظ من هجوعه • وصدت الخطـأ عن قصده ، وحكمت عليـه برجوعه فتمسى والنجم له استقامة بعد الرجوع . ويصبح وللشمس من بعد الغروب طلوع . ولذلك رسم بالامر العالي ، المولوي ، السلطاني ، الملـكي ، المنصوري ، السيفي ـ زاده الله شرفا وملأ بمحـامده من الايام صحفـاً ـ أن يفوض تدريس المدرسة « الامينية » بدمشق المحروسـة الى الجنـاب العالي ، المولوي ، القضائي ، الامامي ، الاوحدي ، الافضلي ، الارشدي ، الزاهدي ، العابدي ، الورعي ، الناسكي ، العلوي ، العـلامي ، الشمسي ، ضياء الاسلام ، صدر الانام ، بقية الـكرام ، علامة العلماء بمصر والعراق والشام ، كهف الملة ، ركن الشريعة ، شيخ المذاهب ، مفتى الفِـرَق ، قدوة العالمين ، ظهير الملوك ، والسلاطين ، خالصة امير المؤمنين : أحمد بن الشيخ الامام ، العلامة ، بهاء الدين بن خلـكان ـ ضاعف الله جلاله ـ اذ كان المعني بهذا المعنى • والاوحد الذي لا نظير له فما يجمع ولا يثنى • وهو الاولى بان ينعت بواحد الزمان . والمراد به من مفهوم هذا الخطاب وغيره هو الذى

أردناه بقولنا : مضى هذا من هذا الباب لتزين سماء العلوم منها بشمسه المنيرة ، ويحتوي صدرها من تصدره بها على حاوى العلوم الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . وليفوض نظرها اليه . فقد حكم له بها الاستحقاق . وأصبحت نظامية الشام لما درّس بها • وقد اربت على نظامية العراق ، وقد درّس فيها الشيخ أبو اسحاق • وشهادة فضله الآن مغنية عن فضل امسه • والاخبار عن الماضي من الامر لا يفتقر اليه والعيان شاهد لنفسه . ومتى احتاج النهار الى دليل مع طلوع فجره ، وشروق شمسه . والواصف لمناقبه ما عساه ان يورد بين يدي فضائله ، وسماعه لدرسه . ويوجز ويطنب فلا يخلى ولا يملى . وكيف يمل وتوفيق مفيد العقول عليه تملى . فليقصر في هذا المقام على افادته . وتحصيل الاكتفاء باباته ، عن تكرر المقال واعادته . وليباشر ذلك على قاعدته فيه ، وعادته ، والاعتماد على الخط الكريم اعلاه ان شاء الله تعالى »[1] .

٤ ـ توقيع بتولية مدرس بدار الحديث النفيسية

عين الشيخ شمس الدين الذهبي[2] سنة ٧٤٨هـ لتدريس الحديث بالمدرسة النفيسية[3] وامامتها بعد وفاة علم‌الدين البرزالي[4] كتبه له صلاح‌الدين الصفدي • ونسخته :

---

(١) اليونيني ج ٤ ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٢) ولد الشيخ شمس‌الدين الذهبي سنة ٦٧٣هـ وتوفي سنة ٧٤٨هـ وكان مؤرخ الشام وشيخ المحدثين وقدوة الحفاظ والقراء . ولي مشيخة الظاهرية والنفيسية والفاضلية وغيرها . وقد اشتهر بمؤلفاته التي بلغت نحو المئة . منها : تاريخه الكبير المسمى « تاريخ الاسلام » والدول الاسلامية . وطبقات القراء المسمى « معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار » . وميزان الاعتدال و « المشتبه في الاسماء والانساب » و « تذكرة الحفاظ » ... الخ . ومعجم اشياخه وهم ١٣٠٠ شيخ بالسماع والاجازة . راجع ترجمته في الوافي ج ٢ ص ١٦٣ ـ ١٦٦ والنعيمي [١ : ٧٨ ـ ٧٩] .

(٣) المدرسة النفيسية : احدى دور الحديث في دمشق تقع شمالي غربي المدرسة الامينية . وهي تنسب الى واقفها النفيس اسماعيل بن محمد بن عبدالواحد بن صدقة الحراني الدمشقي . كان ناظر الايتام . مولده سنة ٦٢٨هـ ووفاته سنة ٦٩٦هـ [الدارس ١ : ١١٤] .

(٤) علم‌الدين البرزالي : الامام الحافظ المؤرخ أبو محمد القاسم

« رُسم بالامر العالي لا زالت اوامره المطاعة تطلع في آفاق المدارس شمسا ، وتُزيل بمن توليه عن المشكلات لبسا ، ان يرتّب المجلس السامي الشيخي الشمسي في كذا وكذا علما بانه علاّمة ، وحافظ متى أُطلق هذا الوصف كان عَلَماً عليه وعلامة ، ومتبحر أشبه البحر اطّلاعه والدرّ كلامه ، ومترجم رفع لمن ذكره في تاريخ الاسلام اعلامه ، فالبخاري طاب ارَجُ ثنايه عليه ، ومسلم أول مؤمن بأنّ هذا الفن انتهى اليه ، وابو داود يحمد اثاره في سلوك سَنَن السُنَن ، والترمذي يخال انه فداه بنور ناظره من آفات دار الفتَن ، والنسائي لو نسأ الله في اجَله لرأى منه عجبا ، وابن ماجة لو عايَن ما جاء به ماج له طربا .

فليباشر ما فُوّض اليه مباشرة تليق بمحاسنه ، وتدلّ طالبي الصواب على مظانّه واماكنه ، ويبيّن لهم طُرق الرواية . فالفقه حلة وعلم الحديث عَلَمُها وطرازها ، والرواية حقيقة ومعرفة الرجال مجازها ، ويتكلم على الاسانيد ففي بعض الطرق ظلم وظلام ، ويورد ما عنده من الجرح والتعديل ان بعض الكَلام فيه كِلام ، ويوضح احوال الرُواة الذين سلفوا فليس ذاك بعيب وما لجرح بميّت ايلام ، وينمّ بما اطلع عليه من تدليسهم فما احسن روضة هو فيها نمّام ، ويسرد تراجم من مضى من القرون التي انقضت فكأنها وكأنهم أحلام . ويحرّض على اتصال السند بالسماع ليكون له من الورق والمداد رصدان ضوء الصبح والاظلام ، ولا يدع لفظة تُوهِمُ اِشكالا فالشمس تمحو حندس الاوهام ، حتى يقول الناس : ان شُعبة منك شُعبة ، وابا زُرعة لم تترك عنده من الفضل حبّة ، وابن حزم ترك الحزم وما تنبّه ، وابن عساكر توجّس منك رُعبَه ، وابن الجوزي عدم لُبّه ، واكل الحسدُ قلبه .

الاشبيلي الاصل ، الدمشقي ولد سنة ٦٦٥هـ وتوفى سنة ٧٣٩هـ . ولي مشيخة دار الحديث النورية ومشيخة النفيسية . ذكر الذهبي ان مشيخته بلغت أكثر من ٣٠٠٠ شيخ . صنف كتبا كثيرة . وكتب بخطه ما لا يحصى . [الدارس ١ : ١١٢] .

ولا تغفل عن الزام الطلبة بالتكرار على المتون الصحيحة دون السقيمة ، فما يستوى الطيب والخبيث ، وذكّرهم بقوله عليه السلام : مَنْ حفظ على أُمّتى اربعين حديثا وان كان الحفظ بمعنى الجمع فالعملُ بظاهر الحديث ، فانت ذو الصفات التى اشتَهَرَت ، والفضايل التى بهرَت ، والدربة التى اقتدرت على هذا الفنّ ومهَرت ، والفوايد التى ملأت الامصار وظهرَت ، والحجج التى غلبت الخصوم وقهرَت ، لم تضع وقتا من زمانك اما ان تُسمع أو تُلقي أو تنتقي ، واما ان تجتهد في نصرة مذهب الشافعى رضى الله عنه حتى كانك البيهقى ، واما ان تصنّف ما يتمنى بقيّ بن مخلد لو عاش له وبَقِي ، وانت ادرى بشروط الواقف رحمه الله فارْعها ، واتبع اصلها وفرعها ، واهدِ الدعاء له عقيب كل ميعاد وأشركه مع المسلمين في ذلك . فانوار الرحمة تلمع على هذا السواد ، واذكر من تقدّمك فيها بخير ، ففضلُه كان مشهورا ، واسأل له الجنة من الله ليسرّك يوم القيامة اذا اصبح علَماً منشورا . والوصايا كثيرة ومثلك لا يُنَبَّه ، ولا يُقاس بغيره ولا يشبَّه ، وملاك الامور تقوى الله تعالى وقد سلكتَ منها المحجة ، وملكتَ بها الحُجّة ، فلا تُعَطّل منها جيدك الحالي . وارو ما عندك فَسَنَدُكَ فيها عالي ، والله يمدك بالاعانة ، ويوفّقك للانابة والابانة ، بمنّه وكرمه »[1] .

٥ ـ توقيع بتولية معيد بالمدرسة الدولعية

عندما ولي القاضي فخر الدين المصري الشافعي[2] الاعادة بالمدرسة

---

(١) الوافي ج ٢ ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .

(٢) القاضي فخرالدين وردت ترجمته في الدرر الكامنة ج ٤ ص ٥١ وطبقات السبكي ج ٥ ص ٢٥١ والشذرات ج ٦ ص ٢٩٢ والدارس ١ : ٢٤٥ ـ ٢٤٨ . ولد سنة ٦٩١هـ بالقاهرة وتوفى بدمشق سنة ٧٥١هـ [وفي الشذرات انه توفى سنة ٧٨٦هـ] قرأ الفقه والعربية على كمال الدين ابن قاضي شهبة . وقرأ بقية العلوم على كمال الدين بن الزملكاني . ولي تدريس العادلية الصغيرة . واذن له في الافتاء . وجلس في

الدَوْلَعِية[1] . كتب له صلاح الدين الصفدى . سنة ٧٣٣هـ توقيعاً هذا نصه :

« رُسم بالامر العالى لا زال يرتفع به العلم الشريف (الى فخره)[2] ، ويعيده الي خَيْر حَبْر تُقتبس الفوائد من نوره . وتُغْترف من بحره . ويجمّل الزمان بولائه[3] مَنْ هو عَلَم عصره ، وفخر مصره ، ان يعاد المجلس العالي الفخرى الى كذا وكذا وضعا للشيء فى محلّه ، ورفعا للوَبْل[4] على طلّه ، ودفعا لسيف النظر الى يدٍ هى مألف[5] هزّه وسلّه ، ومنعا لشعب مكة ان ينزله غيْر أهله ، اذ هو لاصحاب الشافعي رضي الله عنه حُجَّة ، ولبحر مذهبه الزاخر لُجَّة ، ولأهل فضله الذين يقطعونَ مفاوزه بالسُرَى صُبْحٌ ، وبالمسير محجّة ، طالما ناظر الاقران فعدّ لهم ، وجادل الخصوم في حومة البحث فجدّ لهم وجدّلهم[6] . كم[7] قطع

حلقة الاشغال بالجامع الاموي بعد وفاة شيخه برهان الدين . وتأدب مع شيخه فأخلى مكانه . وجلس دونه . واقدم من سمع عليه الحديث : هدية بنت عسكر . وقد درس بالدولعية في شهر ربيع الاول سنة ٧٣٣هـ وناب في القضاء مدة ثم ترك ذلك . وتفرغ للعلم . وتصدر للاشتغال ، والفترى . وشغل الناس بالعلم مدة مديدة . ويوصف فخرالدين المصري بأنه كان من أذكياء العالم .

(١) انشأها بدمشق عند جيرون جمال الدين أبو عبدالله محمد التغلبي الارقمي الدولعي خطيب دمشق . ولد بالدولعية احدى قرى الموصل سنة ٥٥٥هـ . ورد دمشق شاباً . وولي خطابتها بعد عمه عبدالملك الدولعي ٣٧ سنة وكانت وفاته سنة ٦٣٥هـ . ودفن في مدرسته المذكورة التي وقفها بجيرون . وهو أول من ذكر الدرس بمدرسته [الدارس ١ : ٢٤٢ ـ ٢٥٢] .

(٢) الزيادة التي بين القوسين من كتاب الدارس ج ١ : ٢٤٨ .
(٣) في الدارس ١ : ٢٤٨ ويحمد الزمان بولايته .
(٤) في الدارس ١ : ٢٤٨ الوابل .
(٥) في الدارس ١ : ٢٤٨ تأليف ١ : ٢٤٨ .
(٦) في الدارس ١ : ٢٤٨ فخذلهم وجندلهم .
(٧) في الدارس ١ : ٢٤٨ كما .

الشبُهات بحجج لا يعرفها (السيف)[1] . وأتى بوجه ما رأى الراؤون[2] احلَى منه في احلام الطيف ، ودخل باب علم فتحه القفّال لطالب[3] نهاية المطلب التبري ، وارتوى من مَعين ورد عينَ حياته الخضرى[4] وتمسك بفروعٍ صَحّ سَبْكُها فقال ابن الحدّاد[5] : هذا هو الذهب المصري ، وأوضح المغالط[6] بما نسف به جبالَ النسفي[7] ، وروى أقوال اصحاب المذهب بحافظة يتمنّاها الحافظ السلفى ، كم جاور بين زمزم والمقام ، وألقى عصا سفره لما رحل عنها الحجيج وأقام ، وكَم طاب له القرار بطَيْبَة ، وعطّر بالاذخر والجليل رُدْنَه وجَيْبَه ، وكَم استروح بظلّ نخلها والسَمُرات[8] . وتملّى بمشاهد الحُجْرة الشريفة ، وغيره يسفح على قُرب تُرَبها العبرات ، وكَمْ كُتب له بالوصال[9] وصول . وبثّ شكواه فلم يكن بينه وبين الرسول رسول[10] . لا جرم انه عاد وقد زاد وقارا . وآب بعد ما غاب ليلاً فتوضّح شبيه[11] نهارا .

فليباشر ما فُوّض اليه جرياً على ما عُهد من افادته ، وأُلِف من

---

(١) يعلق الناشر في هامش الصفحة ٢٠٧ ج ٤ عن كلمات سقطت هنا يقتضيها السياق فيقول : ولعلها أصحاب السيف . وصحيحها في « الدارس » ١ : ٢٤٨ لا يعرفها السيف .

(٢) الدارس ١ : ٢٤٨ . وفي الوافي : الرؤياني .

(٣) لطلب . الدارس ١ : ٢٤٩ .

(٤) وفي الدارس ١ : ٢٤٩ الحضرمي مصححة وفي الحاشية وهو يعقوب بن اسحق بن زيد الحضرمي (١١٧ ـ ٢٠٥) ثامن القراء العشرة .

(٥) محمد بن أحمد بن محمد الكناني من فقهاء الشافعية .

(٦) المقال . الدارس ٢٤٩ .

(٧) عمر بن محمد بن أحمد النسفي كان يلقب بمفتي الثقلين ويروى انه كان له نحو مئة مصنف .

(٨) والثمرات . الدارس ١ : ٢٤٩ .

(٩) بالوصل . الدارس ١ : ٢٤٩ .

(١٠) رسولا . الدارس ١ : ٢٤٩ .

(١١) سبيله . الدارس ١ : ٢٤٩ .

رياسته لهذه العصابة وسيادته[1] ، وعُرف من زيادة يومه على امسه فكان كنيل بلاده ، ولا يتعجّب من زيادته ، حتى يحيي بدرسه ما دَرَس ، ويُثمر عود الفروع ، فهو الذى انبته بهذه المدرسة . وغرس مجتهدا في نظر وقفها ، معتمداً على تَتَبُّع ورقات حسابها وصحفها . عاملا بشروط الواقف فيما شرط . قابضا ما قبضه ، وباسطا ما بسطه ، وتقوى الله تعالى جنّة"[2] يرتع فيها خاطره ، ويسرّح في رياضها الناضرة ناظره ، ومثله لا ينبَّه عليها ، ولا يومأ له بالاشارات[3] اليها ، فلا ينزع ما لبسه[4] من حُلاها . ولا يَسْرِ[5] في مَهْمَهٍ الا بَسناها ، واللهُ يديم فوائده[6] لأهل العلم الشريف[7] ، ويجدّد له سعدا يشكر التالد منه والطريف ، والخطّ الكريم أعلاه حجة بمقتضاه »[8] .

٦ – توقيع بتولية مصدر بالجامع الاموي

ولي القاضي بهاء الدين محمد بن عبدالبر الانصاري السبكي الشافعي[9] مصدراً[10] بالجامع الاموي يشغل[11] الناس بالعلم ويفتي في مذهب

---

(١) في الدارس ١ : ٢٤٩ وزيادته .
(٢) في الدارس ١ : ٢٤٩ ويقوى الله تعالى على حبه .
(٣) في الدارس ١ : ٢٤٩ بالاشارة .
(٤) في الدارس ١ : ٢٤٩ ما لبس .
(٥) في الدارس ١ : ٢٤٩ يسيرة .
(٦) في الدارس ١ : ٢٤٩ بفوائده .
(٧) في الدارس ١ : ٢٤٩ لاهل العلم الظل الوريف .
(٨) الوافي ج ٤ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .
(٩) وردت ترجمة القاضي بهاءالدين الانصاري في الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٩ وبغية الوعاة ص ٦٣ وذكره الصفدي في ج ٣ ص ٢١٠ – ٢١١ . ومولده سنة ٧٠٧هـ قرأ العربية على الشيخ اثيرالدين ابى حيان وهو من أجل تلامذته في العربية وكمل اشتغاله على ابن عمه قاضي القضاة تقيالدين السبكي . سمع على الواني وعلى اشياخ عصره . وجود الفقه والاصلين وقد أثبت له الصفدي شيئا من نظمه في ج ٣ ص ٢١٢ – ٢١٤ .
(١٠) المصدر : من التصدير وهو اقراء القرآن وافادة الحديث . راجع السلوك ص ٥٠٤ .
(١١) اشغل : درّس . واشتغل : درس .

الشافعي ورتبه الامير سيف الدين تنكز[1] . كتبه له صلاح الدين الصفدى . ويذكر الصفدى انه كتب له توقيعاً آخر اجود من هذا واكبر لكنه لم يثبت نصه فى كتابه الوافى لانه لم يكن حاضراً لديه عندما دون ترجمته . ونسخة التوقيع :

« رُسم بالامر العالى لا زالت اوامره المطاعة تزيد العِلم بهاءاً ، وترفع له بمن تُولّيه اذ توليه النعم لواءاً ، وتفيده على مرّ الايام من وسمه واسمه بقاءاً ، أن يُرتّب فى كذا ركونا الى فضله الذى اظهره الاختيار وأبانه ، وساعده الاجتهادُ على ما حصّله وأعانه ، وتحقّق العِلمُ أنه بهاؤه فلهذا جمّله بما حمّله منه وزاده وزانه ، وشهدَتْ مصرُ لفنونه المتعدّدة انه سهمٌ خرج من كِنانَه ، أما القراآت فما يبخل السخاوى ان يكون من حزبه ، وما يبعد الدانى ان يتمنى تيسير قُربه ، وأما الفقه فالقفّال لا يدخل معه فى بابه ، وابن الصبّاغ تتلون عليه الوجوه فما ترضى فيما اتى به ، وأما النحو فالفارسي لم يبق له في العربية ايضاحٌ ولا تكملة ، وابن جنّى غاب من أول ما ذكر البسملة ، وأما الفتاوى فانها تفيّأتْ ظِلّ قلمه ، وطوى ابن الصلاح لها نشر علَمه ، وأما الاحكام فما اسرع سهم اصابته فيها نفاذا ، وأطيب ثناءا ، حتى قال الماوردى من قال اقضى القضاة عنّي فانما عنَى هذا .

فليباشر ما فُوّض اليه ناشراً علَمَ علمه الباهر ، مُظْهِراً نُكَت فضله التى ما علم ابنُ حزم باطن حُسنها فى الظاهر ، باحثا عن الخبايا لانه شافى العيّ فى مذهب الشافعى ، ماكثاً على افادة الطلبة ماضمّه

---

(١) سيف الدين تنكز : نائب الشام ، ولى نيابة دمشق سنة ٧١٢هـ . افتتح ملطية سنة ٧١٥هـ . له آثار حسنة في أماكن من البلاد الاسلامية . ودفن بتربته جوار جامعه بدمشق . ومن آثاره بدمشق : دار القرآن والحديث التنكزية . وكانت هذه الدار حماما يعرف بحمام « سويد » فهدمه وجعله دار قرآن وحديث . ورتب فيها الطلبة والمشايخ . عمر القدس . وأنشأ فيها رباطا ودار حديث . وعمر بصفد البيمارستان المعروف به . وجدد القنوات بدمشق . كما جدد عمائر المساجد والمدارس . ووسع الطرقات . الدارس [١ : ١٢٣ ـ ١٢٧ و ٢ ٢٣٨ ـ ٢٣٩] .

الرافعي ، باذلاً ما عنده من العلم الذى هو اخْبَرُ بما جاء فى حقّ مَنْ كتمه ، عاملا على اظهار الغوامضُ لمن حصّل محفوظاً وما فَهِمَه ، مُهْدِياً من نفايس ما ادّخر من الجواهر التى يتحلى بها النَحْرُ ، مُبْدِياً فوايده التى اكتسبها من ابن عمّه حتى يقال ابن عبدالبرّ يحدث عن البحر ، مقيّداً بطريقه فعمُّ الرجل صِنْو أبيه ، مهتدياً به فيما ياتيه عند انقياده وتأبّيه ، وعلى كلّ حالٍ فهو ابوه شاء العُرف أو أبى ، لأن بعض المفسّرين ذهب ان آزر عم ابراهيم وقد سماه الله أبا ، فقد طلعتما بأفق الشام نَيِّرَيْن ، وأحيى الله بكما سيرة العُمَرَيْن ، ما ذُكر فضلكما في الاوراق الا راق ، ولا طلع بدرُ علمكما في الآفاق الا ، فاق ، قد انكشف بكما من الباطل زَيْفُه وبهَرَجُه ، ونصرتما الشرع لانكما من قوم هم أوسُه وخزرَجُه طالما كثر الانصارُ يوم اليأس اذ قل الناس وقلوا يوم الطمع ، ولو خرّ سيفٌ من العَيُّوق مُنصلتاً ما كان الا على هاماتهم يقع ، وحقيقٌ بمن كان من هؤلاء وهو فرعُهم الزاكى ، ونجلُهم الذى يعجز عن وصفه الحاكى ، أن تجرى عَلَى اعراقهم جيادُه ، وأن يكون بازاء دم الشهيد مدادُه ، والوصايا كثيرة والتقوى زمامُها وامامُها ، اذا تقدم كل جماعة أمامَها إمامُها فلا تُعَطِّل من حُلِيِّها عُنقَك ، ولا تُخَلِّ من بدورها أُفقَك ، والله يجمّل بك الايام والانام ، ويديم لهم فضلك الذى أراح جفنهم من الارق وأنام ، والخطّ الكريم أعلاه حجّة بمقتضاه ان شاء الله تعالى»[1].

---

(١) الوافي ٣ ص ٢١١ ـ ٢١٢ .

المـــراجـــع

١ ـ الوافي بالوفيات تأليف الصفدي : مطبعة وزارة المعارف باستانبول سنة ١٩٤٩ باعتناء س : ديدرينغ ٠

٢ ـ الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير تأليف ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤هـ طبع بغداد ١٩٣٤ ٠

٣ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة المنسوب لابن الفوطي : بغداد ٠ مطبعة الفرات سنة ١٣٥١هـ ٠

٤ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ٠ ابن الجوزي ٠ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد الدكن ـ الطبعة الاولى ٠

٥ ـ ذيل مرآة الزمان٠ تأليف الشيخ قطب الدين اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦هـ ـ ١٣٢٦م ٠ الطبعة الاولى : مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن بالهند سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م ٠

٦ ـ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ٠ المجلد الثامن ج ١ و٢ تأليف شمس الدين يوسف ابى المظفر الشهير بسبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ ٠ الطبعة الاولى بمطبعة دائرة المعـــارف العثمانية بحيدر اباد الدكن بالهند ٠

٧ ـ تاريخ البيهقي: ترجمه الى العربية الدكتور يحيى الخشاب وصادق نشأت ـ مطبعة دار الطباعة الحديثة ـ مصر ١٩٥٦ ٠

٨ ـ السجلات المستنصرية ـ تحقيق الدكتور عبدالمنعم ماجد ٠ مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٥٤ ٠

٩ ـ دراسات في تاريخ المماليك البحرية ـ الدكتور علي ابراهيم حسن ٠ الطبعة الثانية ١٩٤٨ مطبعة النهضة بالقاهرة ٠

١٠ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : تأليف جمال الدين محمد بن سالم بن واصل المازني التميمي المتوفى سنة ٦٩٧هـ المطبعة الاميرية بالقاهرة ٠

١١ـ كتاب الوزراء والكتاب ـ الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١هـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٩٣٨م ٠

١٢ـ التعريف بالمصطلح الشريف تأليف القاضي ابن فضل الله العمري ٠ مطبعة العاصمة بمصر سنة ١٣١٢هـ ٠

١٣ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : غرس‌الدين خليل بن شاهين الظاهري · المطبعة الجمهورية بباريس سنة ١٨٩٤م ·

١٤ـ كتاب قوانين الدواوين ـ ابن مماتي المتوفى سنة ٦٠٦هـ مطبعة مصر سنة ١٩٤٣م ·

١٥ـ الاشارة الى من نال الوزارة ـ ابن منجب الصيرفي · المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٤ ·

١٦ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ـ المقريزي · طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ·

١٧ـ الخطط والآثار في مصر والقاهرة والنيل وما يتعلق بها من الاخبار ـ المقريزي · طبعة بولاق ·

١٨ـ صبح الاعشى ـ القلقشندي · المطبعة الاميرية بالقاهرة ·

١٩ـ أدب الكتاب ـ أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥هـ · المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤١هـ ·

٢٠ـ تاريخ علماء المستنصرية ـ ناجي معروف · مطبعة العاني بغداد ١٩٥٩ ·

٢١ـ قانون ديوان الرسائل ـ ابن منجب الصيرفي · مطبعة الواعظ بالقاهرة ١٩٠٥ ·

٢٢ـ حسن المحاضرة ـ السيوطي طبعة القاهرة ١٩٠٣ ـ ٤ ·

٢٣ـ معجم الادباء ـ ياقوت الحموي طبعة فريد رفاعي ·